حسين الشرقي

صراع الميراث

رواية

2025

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

رواية

صراع الميراث

أسم المؤلف: حسين الشرقي

الطبعة الأولى

–

التدقيق اللغوي: دار الفراعنة

التجهيزات الفنية والطباعة:

دار الفراعنة للنشر والتوزيع

+201009414497

رقم الإيداع: 22324 / 2025م

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 8883 – 56 – 5

الآراء الـواردة فـى هـذا الكـتاب لا تعـبر بالضـرورة عـن توجـه الدار، بل تعبر عن رأى المؤلـف فى المقـام الأول.

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة، للمؤلف و للناشر، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويلـه رقميًـا، أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتـابي مسبق من المؤلـف ومن الناشر.

الإهداء

إلى من ورّثوني الألم دون أن يدروا...

فجعلوني أكتب.

وإلى كل ابنٍ لم يُخبره أبوه يومًا أنه فخور به،

وكل قلبٍ عاش نصفه مكسورًا، والنصف الآخر صامتًا...

إلى القارئ الذي ظنّ نفسه وحيدًا وسط العائلة...

هذه رو ايتك.

المقدمة

ليست هذه حكاية عن الميراث كما يبدو في ظاهرها...

بل عما نرثه دون أن نعلم، من ملامح وندوب وصمت طويل.

عن الأبناء الذين يفتّشون بين ركام الذكريات عن إجابة واحدة:

لماذا أحبّ غيري أكثر؟ ولماذا تأخّرت محبتك إليّ؟

هذه رواية عن الخذلان الذي يتوارثه الناس كما يورّثون البيوت،

وعن صراع الأخوة حين يصبح الدمّ قيدًا، والاسم ساحة حرب.

لكنها أيضًا رواية عن الشفاء...

عن فنانٍ يُرمّم جدار قلبه بريشة، وعن امرأة تشعل في داخله ضوءًا لم يعرفه من قبل.

عن أمٍّ لا ترث إلا الصبر، ومع ذلك كانت أغنى الجميع.

"ظلّ الوريث" ليست نهاية حكاية، بل بداية بحث...

عن الإرث الذي لا يُكتب في الوصايا،

عمن نحن حين نتعرّى من كل ما قيل لنا إننا نملكه.

دخل عبد الله المنزل، وهو مرهق تكسو وجهه علامات التعب أغلق باب المنزل خلفه ومضى يتجول في فنائه، وطرف عصاه ينغرز في الأرض كلما خطى خطوة فرقى سلم المنزل وطرف عصاه تبعث طرقات متتابعة، وعند طرف السلم أخذت سالمة في يدها كوب ماء بارد أعطته زوجها عبدالله بكل ود ومحبة.

في الغرفة تخلص من عصاه، خلع ملابسه هرع إلى الكنبة ماداً ساقية إلى الأمام وأغمض عينية وهو يجفف بالمنديل وجهه، وفي ذات الوقت كانت زوجته تضع العشاء في صالة الطعام دخلت عليه الغرفة توقفت قليلاً تترقب قيامه حتى تساعده في ارتداء ملابسة، وهي تنظر إليه باهتمام تود لو تكون لديها الشجاعة الكافية أن تقول له يكفيك تعب وسهر حان دور أبنائك أن يتحملوا ما تبقى من مسيرتك الحافلة بالإنجازات لكنها لم تعلم كيف تفصح عن أفكارها غلبها الابتسام وهي تنظر إليه حيث تذكرت كل تلك الليالي المليئة بالحب والسعادة التي قضتها معه طوال حياتها ثم تنبهت لأمرٍ قاله لها:

لا تنسي يا يا سالمة أبدًا بأنكِ السراج الذي ينير عتمة البيت.

- هل هناك شيئاً ما يقلق راحتك؟

- لا تقلقي فأنا بخير.

ثم نهض وكأنه يقاوم شيئاً ثقيلاً أتجه إليها قائلاً:

لا أخفيكِ شيئاً فأنا تائه، خائف، مثقل بالكثير من الأشياء التي تؤرقني في الأيام الأخيرة فقد رأيت أبنائي بأنهم على غير وفاق، وأيضًا قد ضايقني أمراً من صديق طفولتي كيف جعلني أعتذر منه أمام الناس شعرت حينها بالذل.

- لا تقلق فهو سيدرك خطأه ويأتيكَ معتذراً، وبالنسبة لأبنائك لا تقلق فهذا يحدث في كل الأسر.

- لا عليكِ دعينا نتناول عشاءنا الآن.

وبعد أن تناول وجبة العشاء نهض وكأنه يقاوم شيئاً ما قد تمكن من جسده وأتجه إلى غرفته ثم أستلقى على سريره محدثاً نفسه أني الآن على خير حال ويجب أن أهنأ بنومٍ بعد تعب ولينعم عليّ ربي بحياة يغبطني عليها كل من حولي.

جلست سالمة على كرسي بجوار السرير واضعه يديها على جبين زوجها فابتسم قائلاً لها:

لا تقلقي فأنا بأفضل حال يجب عليكِ أن تنامي الآن فغداً لدينا الكثير من العمل حتى نقوم به.

كانت كثيرة الأشياء التي كانت ترهق سالمة فما أقسى الجسد عندما يصبح مبعث للأرق وأول تلك الأشياء زوجها المتعب والموقف الذي حدث معه لا تعلم كيف تهرب من هذا الخوف بدأت تمسك تتحسس قلبها كطفلة تفتش ما بصندوقها من لعب وتطمئن عليها، تذكرت ابنها الكبير يوسف الذي لم يكن اجتماعيًا، ولم يعشق زحام الناس وتجمعاتهم، يفضل العزلة كثيراً ولكن إن دعي لجمع لبى النداء، يجلس صامتاً أغلب الوقت ولكن ليس عابساً، لا يحب منافسات الحديث وعلو الصوت ومحاولة فرضه على من حوله، لا يدخل في جدال مع أحد يكتفي بابتسامة أو تعليق بسيط، هدوءه يحترمه الجميع ويحسبه الجاهل تعالي على الأخرين، لا يتطفل ولا يتدخل في شؤون الأخرين، لم تكن له تجارب عاطفية ولا علاقات مشبوهة لم يكن انطوائياً بمعنى الكلمة إنما انطواءه كان مع فرد واحد يشبهه، فهو يؤمن بحتمية الصديق الواحد والحبيب الواحد الذي يمثل له كل الكون مختزلاً في كيان واحد يصاحبه .

دخلت عليه الغرفة وجدته ممسكاً كوباً من الشاي ويتحدث مع نفسه، قالت له وقد شاعت من وجهها ابتسامة ماذا بك يا بني؟ لماذا تتحدث مع نفسك؟ ولماذا لازلت منطوياً على نفسك ما حدث في الماضي قد حدث يجب عليك أن تنسى؟

_ لا أهتم لما حدث في الماضي يا أمي وإنما كل تفكيري هو معاملة والدي السيئة لي كيف له أن يحب أخي أكثر مني يمنحه كل ما يحتاج له وأنا لا؟

_ فكر ملياً يا بني أعتمد على نفسك وأخلق من نفسك شخصاً يستطيع والدك الاعتماد عليه.

_ كيف أستطيع ولا يوجد لدي رأس مال أستطيع من خلاله أن أبدأ به أي مشروع.

_ فكر بالمشروع أولاً وأترك الباقي لي.

_ حسناً أمي.

_ سوف أغادر الأن وأقول لك مجدداً أترك كل ما مضى خلفك وأبدأ بالتفكير في مشروع يناسبك وأنا سوف أدعمك بقدر ما أستطيع. عندما غادرت "سالمة" غرفة ابنها "يوسف"، شعرت بقلق يتسلل إلى قلبها. كانت تعرف أن يوسف يعاني

من بعض الانزواء والتوتر العاطفي، وكانت ترغب في مساعدته على التغلب على تلك الصعوبات.

قررت أن تبحث عن طرق لتشجيعه وتعزيز ثقته بنفسه.

في الأيام التالية، بدأت سالمة بالتفكير في فكرة مشروع يمكن أن يساعد يوسف على التعبير عن نفسه واستغلال مهاراته الخاصة.

بعد البحث والتفكير، وجدت فكرة مشروع صغير يتعلق بصناعة الأدوات اليدوية الفنية، وهي شيء كان يوسف مهتمًا به.

تحدثت سالمة مع يوسف عن فكرة المشروع، وأبدى اهتمامًا ورغبة في تجربته. قررا معًا أن يبدأوا بمشروع صغير يقومان بصنع بعض الأدوات اليدوية البسيطة مثل الخزف والنجارة والتصوير.

قاما بتأمين بعض المواد الأساسية والأدوات المطلوبة وبدأوا في العمل.

بدأ يوسف في التعلم والتدرب على الفنون اليدوية، وكانت سالمة تقوم بتوجيهه ومساعدته في كل خطوة.

كانت تشجعه وتثني على تقدمه وتعبيره الفني. بدأ يوسف يشعر بالثقة المتزايدة في قدراته وبدأ يعبر عن نفسه بشكل أكثر إبداعًا وثقة.

مع مرور الوقت، نمت مهارات يوسف وتحسنت منتجاته.

قررا أن يعرضا منتجاتهما في معارض فنية محلية وأن يفتحا متجرًا صغيرًا لبيع الأدوات اليدوية الفنية.

كانت الاستجابة إيجابية وبدأ المشروع يحقق نجاحًا تدريجيًا.

أصبحت سالمة فخورة جدًا بيوسف وبما حققه.

كان يوسف يشعر بالرضا عن نفسه وبالثقة في قدراته.

كانت العلاقة بينهما تتطور وتقوى، وكانا يدعمان بعضهما البعض في رحلتهما الفنية والعاطفية.

تمكن يوسف من تجاوز صعوباته العاطفية والاجتماعية بفضل الثقة التي اكتسبها والتفرغ لشغفه بالفنون اليدوية.

ومع مرور الزمن، أصبح يوسف قدوة للآخرين الذين يعانون من صعوبات مماثلة، وبدأ يقدم ورش عمل ويشارك خبرته مع الآخرين.

أصبح لديه شبكة دعم اجتماعية وفنية تساعده على النمو والتطور.

تعلمت سالمة الكثير من هذه الرحلة مع يوسف.

تعلمت أن الدعم والتشجيع يمكن أن يكون لهما تأثير كبير في تحسين الثقة بالنفس والتغلب على الصعوبات. تعلمت أيضًا أن الاهتمام بالاهتمامات الفردية وتوجيهها نحو أنشطة إيجابية يمكن أن يخلق فرصًا للنمو والتحسين.

في النهاية، استطاعت سالمة مع يوسف تحويل تحدياتهما إلى فرص للتطور والتعافي.

أصبح لديهما مشروع مشترك يمثل لهما مصدر فخر وسعادة.

وعلى المستوى الشخصي، أصبحت العلاقة بينهما أقوى وأكثر ارتباطًا.

ظلت أيام كثيرة تتذكر حديث ابنها يوسف وكيف أنه يحمل الكثير من العتاب تجاه والده عكس زوجها الذي كان ينام نوماً عميقاً حتى أنه نسي ما حدث.

بعد أيام خرج عبدالله دون أن يتناول وجبة الفطور مع أفراد العائلة، خرج إلى العمل وصل المكتب جلس على الكرسي وهو يحرك رأسه يمنه ويسره كأنه يبحث عن شيئاً لا يستطيع الاستغناء عنه رفع سماعة الهاتف طلب من المراسل أن يحضر له كوب من القهوة وكأنه الدواء الوحيد الذي يغير مزاجه ويعيد إلى رأسه أتزانه وإلى نفسه اعتدالها، تجرد من كل أفكاره ورد إلى ذهنه ما قاله صديق عمره أبو أحمد وكيف أنه أهانه بدأ جسمه في هذه الأثناء يتصبب عرقاً، توقف قلبه عن النبض انتقلت روحه إلى خالقها انتهت رحلته الطويلة التي حقق فيها الكثير من الإنجازات على المستوى الشخصي.

أقيم العزاء على مدار ثلاث أيام حضر الكثير من الشخصيات المهمة والغير مهمة، حضر العزاء الغريب والقريب، العدو والصديق، ولكن لم يكن هناك شخصاً حزيناً بقدر " يوسف " الابن البار لوالديه الابن الذي لم يحظى ولو بقليل من حب والده ورغم ذلك كان يشكل فقدان والده علامة فارقة في حياته عانى شعور مرعب لم يعد قادر على البوح، أراد البكاء كطفل فقد لعبته المميزة، تائه بين ذاته محاولاً معرفة ما كان عليه سابقاً وما سيكون عليه بعد وفاة والده، أفكار تتزاحم داخل جدران عقله لا يعرف كيفية التعبير عنها، شعور بالتشتت لا يعرف كيف يتخلص منه.

في ايام العزاء كان يوسف يشعر بأن الناس يمرّون كأطياف. لم يكن يرتاح لوقوفه بينهم. فهد كان الأكثر حضورًا، يتحدث بثقة ويشكر الجميع، كأنه يمثل العائلة كلها. سالم كان صامتًا، ينظر إلى الأرض.

تناهى إلى سمع يوسف أحدهم يقول بصوت خافت:

"الله يرحمه عبدالله كان يحب فهد كثيراً، دائماً يمتدحه أمام الناس."

لم يلتفت، لكنه شعر بكلماتهم تلسعه في صدره، كأنها حقيقة يعرفها ولا يريد أن يصدقها.

وفي الداخل، دخل أحد أقاربهم، شيخ كبير في السن، جلس إلى جانب سالمة وقال بصوت مرتفع يسمعه الجميع:

"الله يرحمه، كان دائماً يقول:

فهد سندي، وسالم رجلي التي امشي عليهاأما يوسف فلم يذكره، لكن ربما كان يراه ضعيف الشخصية."

جمدت سالمة للحظة، ثم قالت بسرعة وهي تمسح دمعة عن خدها:

"جميعهم ابنائه، وكل واحد فيهم له حصة من قلبه."

لكن يوسف سمع، وسمع غيره أيضًا.

التفت إلى الداخل، ونظر إلى أمه نظرة قصيرة، ثم خرج إلى الحديقة، حيث لا أحد يسأله ولا أحد يجيب.

وقف وحده بين الأشجار وقال في سره:

"حتى في وداعه، أنا الغريب."

ومع نهاية أيام العزاء دخل يوسف غرفة والده لأول مرة منذ وفاته فتح الدولاب الخشبي العتيق، تنفّس رائحة والده التي ما زالت عالقة في ثيابه، وجلس على الكرسي المقابل للسرير.

عيناه جالت في الغرفة، ثم استقرت على دفتر قديم كان والده يدوّن فيه رسائله بين الحين والآخر، دون أن يعلم أحد.

بدأ يقرأ:

"إلى يوسف:

لم أكن أبًا مثاليًا، أعلم.

لكني كنت أراقبك بصمت، وأفتخر بك أكثر مما تتخيل.

لم أُحسن التعبير، ولم أكن من النوع الذي يجيد احتضان أولاده بالكلام أو العناق.

لكنك كنت ولا زلت قطعة من قلبي،

ربما أحببتك أكثر من قدرتي على البوح."

انهمرت دموع يوسف بغزارة.

شعر لأول مرة أنه ليس منسياً، ولا منبوذًا، بل كان محبوبًا بطريقة خفية، موجعة.

مرت أسابيع قليلة، يوسف يستيقظ كل يوم باكرًا، يحتسي قهوته بهدوء في ركن مشغله الصغير الذي بدأ يزداد نشاطًا وشهرة.

الأواني الخزفية التي يصنعها كانت تحمل شيئًا من روحه، لمسة حزينة دافئة، جعلت الناس يتحدثون عنها ويقبلون على شرائها وكأنها تروي حكاية لا تُقال بالكلمات.

كانت "سالمة" تتابعه من بعيد، تراه يكبر كل يوم من جديد، وتدعو له سرًا كلما رأته يكد ويتعب دون أن يشتكي. ذات صباح، دخلت عليه وهي تحمل قطعة قماش مطرزة قديمة، كانت هدية زفافها من والدتها. وضعتها أمامه وقالت:

ـ فكرت أنك ممكن تستلهم منها تصميمًا جديدًا.

أخذ يوسف القطعة بيده وكأنه يمسك بذاكرة قديمة، وقال مبتسمًا:

– جميلة مثل أيامكم.

ثم بدأ يخطط لخط إنتاج جديد مستوحى من تراث العائلة، شيء يجمع بين الماضي والمستقبل، بين الحنين والفن.

أطلق عليه اسم "أثر"، وقال لكل من حوله إن كل قطعة من "أثر" ستروي قصة إنسان.

ومع نجاح المشروع، بدأت الدعوات تأتيه لحضور معارض فنية، أولها كان في العاصمة، وكان عليه أن يسافر للمرة الأولى بمفرده.

في طريقه إلى المعرض، جلس يوسف بجوار النافذة يراقب الأراضي الممتدة. للمرة الأولى يشعر أنه لا يهرب من شيء، بل يتجه إلى شيء. كان خائفًا بعض الشيء، ولكن هذا الخوف لم يكن مثل السابق، كان يشبه حماسة الاكتشاف.

في المعرض، وقف يوسف أمام طاولته التي تزينها أعماله. لم يكن يجيد الكلام الطويل ولا العروض الترويجية، لكنه حين سُئل عن سر أعماله، قال:

– أنا فقط أحاول أن أصنع شيئًا صادقًا لأن الصدق هو الشيء الوحيد الذي تعلمته من والدي بصمته.

انبهر الزوار بذلك الشاب الهادئ الصادق، وانتشرت أعماله في مجلات التصميم والفن، وأصبح اسمه يتردد في أوساط الفنّيين.

لكن النجاح لم يُنسِ يوسف جذوره، وبعد إلى بيته، جلس مع والدته يحدثها بكل تفاصيل رحلته، ويقول لها:

– لولاكِ يا أمي، ما وصلت هنا.

ومع الوقت، بدأ يفكر في خطوة جديدة أن يفتح مشغلاً اخر صغيرًا في قريتهم، لتدريب شباب وشابات لا يملكون فرصاً كافية، تمامًا كما لم يملك هو.

قال لأمه ذات مساء:

– أريد أن أعلّمهم أن الألم ليس النهاية بل قد يكون بداية لشيء عظيم.

ابتسمت "سالمة" والدموع تلمع في عينيها، وقالت له:

– كبرت يا يوسف كبرت وأبهجت قلبي.

في إحدى ورش العمل التي أقيمت ضمن مهرجان فني بمدينة ساحلية، دُعي يوسف لتقديم جلسة عن "الحرف اليدوية كوسيلة للتعبير عن الذات"، وهناك، لمح الحياة من جديد لأول مرة من بعد وفاة والده، إنها ليان الحياة الجديدة القادمة.

كانت "ليان" تجلس في الصف الثاني، بشعرها المربوط بعفوية، ودفترها الصغير الذي كانت تدون فيه كل كلمة تُقال. لم تكن كالبقية لم تكن كثيرة الأسئلة، لكن عينيها كانت تسأل كل شيء.

وبعد نهاية الورشة، تقدّمت نحوه وسألته:

– هل تعتقد أن الفن ممكن يكون علاج حقيقي للألم؟ او هو مجرد محاولة للهروب؟

أجابها بعد لحظة صمت:

– أحيانًا، هو الشيء الوحيد الذي لا نستطيع أن نهرب منه.

ضحكت، وقالت:

– جواب ذكي ومؤلم في نفس الوقت

منذ تلك اللحظة، بدأت حكاية مختلفة تنبت بينهما.

لم تكن العلاقة سهلة على يوسف.

كان قلبه مترددًا، يخاف أن يقترب أكثر من اللازم، ويخاف أكثر أن يفقد هذا الضوء الجديد في حياته.

أما "ليان"، فكانت صبورة. لم تضغط، ولم تبتعد، فقط ظلت قريبة بما يكفي لتشعره بالأمان، وبعيدة بما يكفي ليأخذ قراراته دون تردد.

كانت ليان فنانة تشكيلية، تعمل مع أطفال مصابين باضطرابات نفسية من خلال الرسم. جمعتها ويوسف نظرة واحدة للفن أن يكونا صوتًا للذين لا صوت لهم.

مع الوقت، بدأت العلاقة تتشكل ببطء، كأنها قطعة فنية من صنع يوسف نفسه.

لا استعجال، لا صخب، فقط تفاصيل صغيرة: فنجان قهوة مشترك، معرض يحضراه معًا، رسائل مكتوبة بخط اليد.

لكن حين بدأ يوسف يفكر بجدية في الارتباط، وجد نفسه أمام معضلة.لم يكن متأكدًا من موقف والدته، خاصة بعد أن عرف أن ليان من بيئة مختلفة تمامًا، حضرية، أكثر انفتاحًا، وهو يخشى أن يُحدث ذلك صدامًا بين عالَميهما.

في ليلة هادئة، جلس مع "والدته" وقال لها:

– أمي حاب أقولك شيء.

رفعت رأسها، ابتسمت وقالت:

– إذاً كانت ليان، فانا أنتظر هذا الحديث من أسبوع.

تفاجأ، سألها:

– كيف عرفتي؟

– قلب الأم يا يوسف لا يحتاج أدلة.

تنهد، وسألها بحذر:

– أنتِ موافقة؟

سكتت للحظة، ثم قالت:

– إذا كانت تشبهك في صدقك لا يهم من أين هي، ولا كيف تربت.

الأهم إنها تفهمك وتحبك مثلما تستحق.

في تلك الليلة، نام يوسف مطمئنًا. شعر أخيرًا أن الحياة بدأت تبتسم له من زاويتين: من يد أمه التي ما زالت ترفعه بدعواتها، ومن قلب ليان الذي بدأ يُعلّمه كيف يُحب دون خوف

بعد حديثه مع والدته، شعر يوسف بأن الأرض بدأت تستقر تحته. كأن جزءاً من التردد الذي كان يثقله قد ذاب تماماً. لكنه لم يكن يعلم أن ليان، رغم هدوئها الظاهر، كانت تخوض معركتها الخاصة.

كانت تحب يوسف، لكنها كانت تخشى أن يخاف منها. كانت تشعر أحياناً أنه يضعها على رفٍّ مرتفع، يتأملها، يعجب بها، لكنه لا يجرؤ على الإمساك بها. وكأنها شيء ثمين يخاف أن يُفسده باللمس.

في أحد الأيام، وأثناء نزهة صغيرة بين أشجار النخيل، جلسا تحت ظل نخلة قديمة، وقررت ليان أن تكسر الصمت:

– يوسف، أنا محتاجة أعرف أين نحن؟

نظر إليها طويلاً، ثم قال بهدوء:

– نحن في مكان ما بين القلب والخوف أنا خائف أخسرك.

– ومن قال لو اقتربت أكثر ستخسرني؟ أنا هنا من اجل أن نواجه الخوف معاً، ليس عليك في كل مرة أن تحارب وحدك.

أغمض عينيه وقال:

– تعودت أحمي نفسي ربما لم أكن يومًا طفل مفضل. لذا تعلمت أتعامل مع مشاعري بصمت.

أخذت يده، وضعتها على قلبها، وقالت:

– أنا هنا من أجلك في أي وقت.

تلك الليلة كانت بداية جديدة. لم يكن الحب بينهما صاخبًا، لم يكن مليئًا بالوعود الكبيرة، بل كان حباً صامتاً مثل دفء شتاء في بيت طيني، يشبه يوسف تمامًا: بسيط، لكنه عميق.

بدأت ليان تزوره أكثر في المشغل. أضافت لمسة أنثوية على المكان. أحضرت بعض اللوحات الصغيرة، رتبت الزوايا، وضعت شجرة زيتون في المدخل، وقالت له مازحة:

– كل بيت فيه حب يجب أن يكون داخله شجرة.

بدأ الناس يلاحظون التغيير في يوسف، أصبح أكثر انفتاحًا، أكثر ابتسامًا. حتى "سالم" – الذي كان دائم التذمر – علّق ذات مرة:

– يوسف؟ يضحك؟! هناك شيء غير طبيعي.

ضحك يوسف وقال:

– يمكن لأني أصبحت طبيعي أخيراً.

لكن السعادة لا تأتي دائماً دون اختبار.

ذات يوم، تلقى يوسف عرضًا من جهة فنية أوروبية لرعاية أعماله وتنظيم معرض كبير باسمه هناك. العرض كان مغريًا، لكنه يتطلب سفرًا طويلًا، وإقامة مؤقتة.

جلس مع ليان وأخبرها، كان مرتبكًا:

– لا أستطيع أن أقرر بدونك.

نظرت إليه بجدية، ثم قالت:

– يوسف، هذا حلمك، لا تسمح لأي شيء يوقفه... حتى أنا.

– لكن لا أريد أن تخرجين من حياتي.

– وأنا لن اخرج مطلقاً... أنا سأظل معك كظلك.

سافر يوسف. وفي كل ليلة، كان يكتب لها رسالة بخط يده، ويرسلها بالبريد. لم يثق في الرسائل الإلكترونية، قال لها ذات مرة:

– الرسائل الورقية تعيش أكثر... مثل حبنا.

عاد يوسف فجأة إلى الوطن، دون أن يُخبر أحدًا. وقف أمام المشغل الذي أنشأه مع ليان، الذي أصبح اليوم مركزًا فنيًا يحتضن عشرات الشباب. فتح الباب، وجدها هناك، ترتب الأرفف، وتغني بهمس.

قال من خلفها:

– ما زالت الشجرة على الباب.

التفتت، وابتسمت، وركضت نحوه كأنها كانت تنتظره منذ سنوات طويلة.

بعد عودته من السفر، كان يوسف أكثر نضجًا، أكثر حضورًا، لكنه أيضاً عاد محمّلًا بأفكار كثيرة، بعضها لم يبح به لأحد... حتى ليان.

خلال سفره، التقى بشخصية مؤثرة "سهيل"، رجل أعمال عربي يعيش في أوروبا، مهتم بالفن وله استثمارات واسعة في المجال الإبداعي. أعجب بعمل يوسف، وطرح عليه فكرة توسعة مشروعه ليصبح أكاديمية فنية حقيقية تستقطب

المواهب من كل أنحاء الوطن العربي. بدا العرض مغريًا جدًا، خاصة أنه تضمن تمويلاً ضخماً، لكنه كان مشروطًا.

الشرط لم يكن بسيطًا: أن يتفرغ يوسف تمامًا، ويوقع عقد شراكة يتضمن الابتعاد عن أي ارتباطات جانبية... وألمح سهيل بشكل واضح أن العلاقة العاطفية – خاصة مع شريكة غير تقليدية كليان – قد تُضعف صورة المشروع في عيون بعض الداعمين التقليديين.

في البداية، رفض يوسف هذا الشرط رفضًا قاطعًا، لكنه لم يُخبر ليان به. بدأت تصله رسائل متكررة من "سهيل"، تحاول إقناعه أن يفصل بين "الحياة الخاصة" و"المسؤولية العامة". بدأت كلمات سهيل تتسلل إلى عقله... فهل يستحق أن يُضحي بحلمه؟ أم بحبّه؟

لاحظت ليان التغير في عينيه... المسافة التي بدأت تتسع بصمت، ولم تكن تفهم لماذا.

واجهته ذات مساء، في مشغلهم المشترك:

– يوسف... أنت تغيرت كثيراً، هل هناك شيئاً تريد أن تخبرني به؟

حاول أن يتهرب، لكن عينيها أجبرته على الاعتراف. قال بهدوء:

– لقد وصلني عرض كبير... لكن هناك شروط لا أحبها.

– شروط؟

سكت. كان صمته كافياً ليُفهم كل شيء.

سحبت يدها من يده، وقالت:

– يعني وجودي ممكن يكون عائق بالنسبة لك؟

– ليس وجودك.. أنا لم اقرر شيء

– لا، يوسف... قرارك يجب أن تتخذه منذ أول لحظة شككت فيها.

غادرت المشغل. تركته واقفًا في المنتصف... بين قلبه، وطموحه.

في تلك الليلة، لم يستطع النوم. أعاد قراءة كل رسائله القديمة لها... وتوقف عند واحدة كانت كتبتها له أثناء سفره:

"لا تسمح لأحلامك أن تنمو على حساب الأشخاص الذين آمنوا فيك قبل لا تحقق أي شيء."

في الصباح، كتب رسالة إلى "سهيل":

"شكرًا على عرضك، لكنه لا يناسبني. الفن بالنسبة لي لا ينفصل عن الإنسان، ولن أضحي بالإنسان من أجل صورة."

ثم، اتجه إلى بيت ليان... لم يتحدث كثيرًا، فقط أمسك يدها وقال:

– هناك شخص واحد كان لابد أن أختاره بينك وبينه... واخترتك.

نظرت إليه، وفي عينيها شيء يشبه الدموع... أو الارتياح العميق.

بعد أن قرّر يوسف البقاء إلى جانب ليان، رافضًا العرض الكبير الذي عُرض عليه، ظنّ أن الأمور بدأت تستقر، غير أن العاصفة كانت تقترب من جهة أخرى... من داخل البيت، من إخوةٍ لم يصالحوا أنفسهم بعد مع حقيقة أن يوسف بات شيئًا مختلفًا... شيئًا لا يُشبههم.

في مساءٍ هادئ، وبينما كان يوسف يعمل في مشغله، تلقّى اتصالًا من سالم، بصوتٍ يحمل توترًا ظاهرًا:

– يوسف، نحتاج إلى اجتماع... لقد حان وقت الحسم.

– أي حسم؟

– البيت... والمزرعة... وورشة الوالد القديمة، آن الأوان لبيعها.

– بيعها؟ ولماذا؟

– لأنه لم يعد ثمّة ما يجمعنا. لكلٍّ منّا حياته ومسؤولياته، وقد سئمتُ من الإنفاق على ما لا يُفيدني.

– لكنها ليست مجرّد أملاك، إنها الذكريات... تاريخ والدنا!

– احتفظ بالذكريات يا يوسف، أما الواقع... فلنحتكم فيه إلى المنطق.

أُغلق الخط، وترك يوسف غارقًا في صمتٍ ثقيل. فالمزرعة هي المكان الذي قضى فيه والده أيامه الأخيرة، والورشة كانت مهد أولى لوحاته، حيث تنفّس الفن للمرة الأولى، والبيت القديم... حيث جلست والدته ذات ليلة، تمسح جبينه بيدٍ قلقة.

وبعد أيام، اجتمع يوسف بإخوته محاولًا أن يبقى متّزنًا، لكن الصدمة كانت أقسى مما توقّع؛ فقد تبيّن أن سالم وفهد، أنهيا بالفعل الإجراءات القانونية الأولية للبيع، ولا يريان أي مبرر للتأجيل.

– يوسف، لسنا ممن يعيش في الذكريات مثلك. كلّنا نعمل، وكلّنا نرغب في بدايةٍ جديدة.

– وماذا عني؟ أنا جزءٌ من هذا المكان... إن سلبتموه مني، ماذا يبقى لي؟

– يبقى لك فنّك... وحبيبتك. لا تتشبّث بما مضى.

خرج يوسف من الاجتماع كمن انتُزعت منه جذوره. لم يكن الأمر مجرد صفقة بيع، بل شعورًا بالطرد من ماضيه، من ذاكرة والده.

حين علمت ليان بما جرى، لم تسعَ إلى تخفيف وقع الخبر، لم تقل له "كلّ شيء يُعوَّض"، بل خاطبته بصراحة:

– يوسف، أنت اليوم على مفترق طرق... إما أن تبني ذاتك من جديد بعيدًا عنهم، وإما أن تقاتل لتسترد حقك وتُثبت وجودك في هذا التاريخ.

– ولكن... ماذا أفعل؟ قانونيًا، هم يشكّلون الأغلبية.

– فكّر كفنّان، لا كمجرّد وريث.

عندها، بدأت فكرة جديدة تتشكّل في ذهن يوسف: أن يحوّل الورشة القديمة قبل أن تُباع إلى معرضٍ توثيقي يحمل اسم والده، ويضم تاريخه، أدواته، وأعمال يوسف الفنية. أراد أن يجعل منها ذاكرة حيّة، لعلّها تردع إخوته، أو تُحرّك فيهم شعورًا بالانتماء قبل أن يُفرّطوا في كلّ شيء.

بدأ العمل فورًا، وساعدته ليان في الإعداد والتنظيم. وجّها الدعوة لأصدقاء قدامى للوالد، وصحفيين محليين، وفنانين شباب. وفي يوم الافتتاح، امتلأت الورشة بالزوار.

دخل سالم وفهد المكان، ووقفا مترددَين بين الزوايا. وعلى أحد الجدران، عُلِّقت صورة نادرة لوالدهما وهو يحمل يوسف طفلًا صغيرًا بين ذراعيه، بابتسامة لم يروها من قبل.

قال سالم بصوتٍ خافت:

– لم أتوقّع كلّ هذا...

فرد يوسف:

– لأنكم كنتم تنظرون إلى ما يمكن بيعه... لا إلى ما يمكن أن يُخلّد.

وفي ختام المعرض، تقدّمت الأم "سالمة" بهدوء، وأمسكت بيد سالم قائلة:

– يا ولدي، ما بعد يوسف إلا قلب البيت... إن انكسر، فلا اجتماع بعده.

بعد نجاح المعرض، بدأت ملامح أملٍ جديد تلوح في حياة يوسف، لكن ذلك النور لم يدم طويلًا؛ إذ وصلته ذات صباح رسالة رسمية من المحكمة، تطلب حضوره لجلسة تتعلّق بـ "نزاع على ملكية عقار".

جلس يقرأ الورقة مرارًا، غير مصدّق. الورشة التي أقام فيها معرض والده، والبيت القديم، وحتى جزء من المزرعة... جميعها سُجّلت في صك ملكية جديد باسم سالم وفهد، من دون علمه.

اتجه على الفور إلى محاميه، وهناك عرف الحقيقة: إخوته استغلّوا توقيعًا قديمًا منه على تفويض عام كان قد منحه لهم بعد وفاة والده لتيسير إجراءات الإرث. استخدموا ذلك التفويض لاحقًا للتصرّف بالأملاك دون إذنه، وبيعها تدريجيًا.

– خانوني إخوتي.

– للأسف يا يوسف، لديهم ثغرة قانونية. لكن يمكننا الرد، وسنحتاج إلى جهد ووقت... وربما حملة إعلامية مسانِدة.

اهتزّ يوسف من الداخل. لم تكن خيانة مالية فحسب، بل خيانة دمٍ وتاريخٍ وعائلة. قرّر ألا يصمت، وبدأ بتحريك الدعوى، مستندًا إلى بعض الوثائق التي احتفظ بها والده، وتسجيلات قديمة للورش يظهر فيها وهو يشرح أن البيت والورشة جزء من "وقف عائلي"، لا يجوز التصرّف فيه دون إجماع الأبناء.

كانت الضربة موجعة، لكنها زادت يوسف إصرارًا. حاول في البداية أن يُخفي الأمر عن ليان، لكنه لم يستطع، وحين أخبرها، صمتت قليلًا، ثم قالت:

– يوسف، الذي يصنعك اليوم ليس دمك... بل اختياراتك. وأنت اخترت الحقيقة، وإن دفعت ثمنها.

بدأت بعض الصحف المحلية في نقل خبر النزاع العائلي تحت عناوين مثل: "ورثة يتنازعون على ذاكرة فنية"، و"مشروع فني يهدده الطمع". لم يشعر يوسف بالراحة لذلك، لكنه استغل الفرصة للظهور في لقاء إذاعي تحدّث فيه عن والده، وعن الذكريات، وعن الورشة والخيانة، بصوتٍ هادئٍ حزين.

أثّر ذلك في كثيرين، حتى أن فنانين بارزين أبدوا تضامنهم معه، وعرضوا مساعداتهم. أما والدته "سالمة"، فلم يكن لها سوى الدعاء، والتنقّل بين أبنائها محاولةً إصلاح ذات البين، لكن القلوب كانت موصده.

وفي إحدى الليالي، طرق يوسف باب منزل سالم، وعندما فتح له، قال:

– لم آتِ لأعاتب... بل لأقول لك شيئًا واحدًا: لن أتنازل... لا عن كرامة أبي، ولا عن حقي.

أغلق سالم الباب بصمت. وخرج يوسف من ذلك البيت حاملاً في داخله عزيمةً أشدّ من الألم.

بدأت جلسات المحكمة، وصار كلّ أسبوع يحمل مواجهة جديدة. الوثائق التي قدّمها يوسف بدأت تُحدث فرقًا، وبدأت الرواية تتغيّر في نظر القانون والرأي العام.

في الجلسة الثالثة، قدّم محامي يوسف مستندًا نادرًا: نسخة مكتوبة بخط يد الأب، يوصي فيها بأن تُعتبر الورشة والمزرعة "إرثًا مشتركًا لا يجوز التصرّف فيه دون إجماع الأبناء". كما أرفق تسجيلًا صوتيًا قديمًا يظهر فيه الأب في لقاء إذاعي، وهو يتحدّث عن حلمه بأن تظل الورشة مكانًا للفن والتنمية العائلية.

ردّ محامي سالم وفهد بأن هذه الوثائق "عاطفية ولا تحمل قيمة قانونية مباشرة"، لكن القاضي أمر بتأجيل الجلسة لأخذ رأي خبير مختص بالأدلّة غير المباشرة، وتقدير النوايا في النزاعات الوراثية.

مضت الايام والاشهر البيت هادئًا كعادته، لكن صاحب ذلك الهدوء نقرات خفيفة على الباب كسرت السكون. فتحت سالمة الباب، فإذا بشاب يقف أمامها، وجهه غير مألوف... لكنه يحمل غربة السنين.

قال الشاب بصوت متردد:

– السلام عليكم... آسف لو أزعجتكم. أنا أبحث عن بيت المرحوم عبدالله بن ناصر.

ارتجفت يدها للحظة، قبل أن تجيب:

– نعم... هذا هو. من أنت؟

ابتسم، وفي عينيه شيء من التردد والمرارة:

– أنا اسمي "راشد"... وأعتقد إن المرحوم كان أبوي.

سكتت، وكأن الهواء انسحب من المكان.

– ماذا تقصد؟!

أخرج من جيبه ورقة قديمة، متهالكة الحواف، كُتب فيها بخط يدٍ واضح: "إلى ابني راشد، سامحني على البُعد، سامحني على الغياب... لم أستطع أن أواجه عيناي التي تشبهك."

تحت التوقيع: عبدالله بن ناصر.

سالمه تماسكت وقالت:

– هذا مستحيل...

قال بثقة:

– لا أقول ذلك ... ولكن أتيت أفتح الباب الذي لابد أن يُفتح. لا أطلب شيء الآن... فقط أريد التحدث إلى يوسف.

وفي هذه اللحظة، دخل يوسف من الباب الخلفي، وهو يحمل بعض الأوراق. توقف فجأة، نظر إلى الشاب، ثم إلى أمه... وقال بصوت مشحون:

– من هذا يا أمي؟

يوسف ثبت نظره على الشاب الذي يدّعي أنه "راشد"، لوهلة شعر أن الزمن توقف، وكأن شيئًا عالقًا في الهواء. لم يردّ فورًا. تقدم بخطوات بطيئة، نظر إلى الورقة في يد راشد، ثم إلى أمه التي كانت ما تزال في حالة صدمة.

– تعني أنك... أخي؟

قال راشد بهدوء، كمن تعوّد على الانتظار:

– لا أعلم إن كنتم ستقبلونها هكذا، ولكن كل الذي أعرفه أني لم أتِ أطالبكم بشيء قبل أن تنصتوا لي.

يوسف أمسك الورقة، قرأها بعناية... كان الخط يشبه خط والده، وصياغة الكلمات تحمل طابعًا عاطفيًا لم يره من قبل.

– متى كتب لك هذا؟

– قبل سنوات، حينما كنت أدرس في البحرين. كان يزورنا بين فترة واخرى... لم يكن يظهر باسمه الكامل، فقط كنت أعرف أن له عائلة هنا. ولكن بعد وفاته... شعرت إن الوقت حان لكي أعرف الحقيقة.

سكت يوسف، ثم ناوله الورقة برفق:

أنا لا أستطيع أرفض وجودك، ولا أستطيع أن أقبلك بدون أن أتأكد. ولكن أعدك بأننا سنسمعك... ونرى كل شيء بوضوح.

ابتسم راشد، وفي عينيه دمعة خفيفة:

– هذا كل ما كنت أحتاج إليه.

في الليل، جلس يوسف مع نورا المحامية وعرض عليها الورقة، فقالت:

– إذا ثبت هذا الشيء، فالموضوع أكبر من قضية ورث... نحن نتحدث عن نسب، عن اسم، عن هوية. نحتاج اختبار DNA، وتحقيق رسمي... ولكن الأهم، إنك تكون ثابت مثل ما كنت.

يوسف نظر من النافذة وقال:

– لا أعلم ماذا سيظهر مستقبلاً، وداخلي يقول إن هناك شيء حقيقي خلف هذا الوجه.

في مساء اليوم التالي في شقة فهد الجديدة، في وسط العاصمة كان التلفاز يعمل بصوت منخفض، يعرض تقريرًا خبريًا عن سوق العقارات، لكن فهد لم يكن يُتابع. كان يجلس على كرسيه الجلدي، يحدق في اللاشيء، منذ أن خسر القضية وهو يعيش في عزلة متوترة... منقطع عن كل ما يربطه بالعائلة، حتى سالم لم يعد يرد على اتصالاته.

رن هاتفه. اسم المتصل: عبد العزيز – الصحفي المعروف.

– أهلًا عبد العزيز، ماذا لديك؟

– الم تتابع ما حدث اليوم؟

– لا. ماذا حدث؟ ماذا هناك؟

– شاب اسمه "راشد" ظهر أمام منزلكم القديم، يقول إنه ابن المرحوم عبدالله! الموضوع بدأ ينتشر، والناس بدأت تتساءل... هل هناك وريث جديد للعائلة؟ ما هو ردكم؟

فهد تجمّد في مكانه.

– ماذا قلت؟! ابن؟!

– واضح من الخبر إنه أعطى والدتك ورقة مكتوبة بخط يد والدك، الظاهر سيطلبون تحليل DNA قريب.

أغلق فهد المكالمة دون رد. نهض فجأة، وبدأ يمشي جيئة وذهابًا في الشقة، كأن جدرانها تضيق عليه.

"عبدالله... يا وجه السرّ... حتى بعد موتك، تخرج لي أشباح من تحت الأرض؟!"

ذهب لغرفته، فتح درجًا صغيرًا، وأخرج ظرفًا أبيض مكتوب عليه: "خاص – لا يُفتح إلا عند الحاجة القصوى". تردّد... ثم مزّق الظرف.

في الداخل، كانت هناك صورة قديمة لوالده مع امرأة أجنبية في إحدى دول الخليج، ومعهما طفل صغير... كان الشبه واضحًا.

هزّ فهد رأسه ببطء، وقال بينه وبين نفسه:

– كان عارف... كان يخفيه طول عمره. وخلاني أقاتل يوسف وسالم، والوريث الحقيقي ما بعد دخل المسرح.

ثم ضحك ضحكة مكسورة، فيها ذعر وسخرية:

– انتهت المسرحية؟ لا... هذي كانت بدايتها.

وفي اليوم التالي وفي أحد الكافيهات القريبة من منزل العائلة جلس راشد في زاوية هادئة من المقهى، يراقب المارة من خلف زجاج معتم قليلاً، أمامه كوب شاي وكتيب صغير يبدو مهترئ الأطراف. كان ينتظر شخصًا، وكل لحظة تمر تشعل توترًا داخليًا.

دخل سالم بخطوات مترددة. نظر حوله حتى التقت عيناه بعيني راشد. تقدم ببطء، وجلس دون مصافحة.

– ما توقعتك تطلب تشوفني لحالي.

ابتسم راشد:

– أنت الوحيد من تواصل معي بدون تردد... حتى قبل يوسف.

سالم قال بصوت منخفض:

– أنا لم أتِ أدافع عن نفسي... فقط حاب أسمعك.

أخرج راشد الكتيب الصغير، وضعه على الطاولة:

– هذا دفتر أبي... أو يمكن نقول "نص" أب. كان يكتب لي فيه كل مرة يزورني، كأنه يعرف إنه لن يبقى طويلاً. فيه كلام كثير... عنكم، عن البيت، عن ذكرياته مع أمك، عن ندمه، عن خوفي أنا من إني أكون مجرد ظل لسر.

فتح سالم الكتيب وقرأ أول جملة:

"كنت دومًا أعتقد أني قادر أعيش حياتين... لكن الثانية طاردتني حتى النهاية."

سالم سحب نفسًا عميقًا وقال:

– يوسف قوي... لكن وجودك سوف يهز أشياء كثيرة داخله. نحن من مدة قصيرة خرجنا من محكمة، راجعين نلملم أشلاءنا.

رد راشد بصدق:

– والله لم أتِ آخذ شيء... فقط أريد حقي في اسمي. حقي أكون جزء من الصورة، حتى لو لم تكن في الجدار... على الأقل في الذاكرة.

سالم نظر له بعين مختلفة هذه المرة:

– ماذا ناوي تفعل الآن؟

قال راشد بهدوء:

– سوف أقدم طلب رسمي لتحليل الحمض النووي. حتى أستطيع أن أقف وأقول: أنا لم أكن وهم. أنا كنت ابن حقيقي... فقط منسي.

نهض راشد، وقال:

– أنا لا أطلب محبتكم... فقط أطلب احترام حقي في الوجود.

في تلك اللحظة... جلس سالم وحده مع الكتيب، وقلبه يخفق بشيء لم يعرفه من قبل: الذنب تجاه غريب... كان من دمه.

وفي اليوم ذاته في مكتب نورا للمحاماة جلست نورا تقلب في ملفات قضية الميراث، توثق كل ما حدث تمهيدًا لإغلاق الملف رسميًا. لكن ما أثار فضولها كان اتصالًا غامضًا وصل إلى البريد الإلكتروني المهني يحمل عنوانًا بسيطًا:

"تحذير بخصوص راشد بن عبدالله"

فتحت الرسالة بتوجّس، وكانت تحوي فقط عبارة واحدة:

"البعض يعود من الماضي... لا ليسترد اسمه، بل ليستكمل ما بدأه غيره."

أُرفق مع الرسالة ملف PDF صغير، عنوانه: "سجلات الهويات والتصاريح – البحرين (2006 – 2015)"

نقرت نورا على الملف، وبدأت تتصفح، حتى وقعت عيناها على ما يلي:

الاسم: راشد عبد الرحمن الصالح

تاريخ الميلاد: مطابق لتاريخ راشد الذي زعم أنه ابن عبدالله

الهوية السابقة: مزوّرة – صادرة باسم راشد بن عبدالله بن ناصر

ملاحظات: مشتبه به في قضية احتيال مالي متعلقة بإرث عائلي في المحرق – أُغلقت القضية لعدم كفاية الأدلة

رفعت نورا حاجبيها... قلبها بدأ يدق بوتيرة أسرع.

تمتمت:

– هذا ليس مجرد شاب يبحث عن نسب... هذا شخص لعب على شيء مشابه من قبل!

على الفور، اتصلت بيوسف:

– يوسف، يجب أن نلتقي بأسرع وقت لأن ما يجب أن تعرفه عن راشد ممكن يغير كل شيء.

في اليوم التالي، وقف يوسف أمام نورا وهي تشرح له التفاصيل.

قال بذهول:

– يعني ممكن يكون... نصّاب؟

ردت نورا:

– لا نستطيع أن نؤكد... لكن لدينا خيط قوي. واضح إن له سجل في تزوير الهويات وربط نفسه بعائلات أثرياء. وسبق أن حاول يدخل قضية مشابهة في البحرين.

يوسف ضرب بيده على الطاولة:

– ما راح أسمح يدخل حياتنا مرة ثانية إلا ومعه تحليل DNA... وتاريخ واضح.

نورا أومأت:

– أنا سوف أطلب تحقيق رسمي ومراجعة لتاريخه، وأنت كُن هادئ... لأنه إذا كان كاذب، فهد سيستخدمها ضدك في الإعلام.

يوسف نظر إلى صورة راشد على الطاولة، وقال:

– القصة الأن تبدأ.

المساء – مزرعة العائلة، ذات المكان الذي اجتمع فيه فهد وسالم قبل المحكمة

وقف راشد يتأمل أشجار النخيل في هدوء غريب، كأن المكان يستجوبه هو أيضًا.

ظهر يوسف من خلفه بصوت حازم:

– راشد!

استدار راشد، كان يهم بالابتسام، لكن تجهم يوسف قطع عليه الطريق.

– لابد أن نتحدث.

اقترب يوسف، وفي يده ملف صغير، وقال دون مقدمات:

– ما رأيك أن تريني هويتك الأصلية؟

سكت راشد.

يوسف ألقى الملف على الطاولة القديمة:

– ماذا كنت تفعل في البحرين؟ ولماذا لك سجل في قضية احتيال مشابهة؟ ولماذا اخترت تظهر بعد وفاة أبوي... بنفس الطريقة اللي حاولت تفعلها هناك؟

راشد عض على شفتيه، وهو يمرر يده في شعره المتعب من التفكير. ثم قال بصوت خافت:

– لا أنكر... اسمي وقتها كان مختلف. وفعلاً تورطت في قضية... لكن لم أكن المجرم. كنت وسيلة.

يوسف بصوت صارم:

– وسيلة؟ او مخطط؟

رفع راشد صوته لأول مرة:

– تدري؟ يمكن أكون أخطأت من قبل... لكن اللي كان بيني وبين أبوك كان حقيقي! ما كنت أنوي أدخل حياتكم إلا بعد ما مات، لأن وقتها فقط قدرت أتحرر من ظله.

أنت تعرف كيف يكون شعور إنك تشبه شخص... لكن دائمًا تكون نكرة؟

أنا عشت كذا.

اقترب يوسف أكثر:

– إذا كان كلامك صحيح... خلنا نبدأ من الصفر. تحليل DNA. هو الحكم.

رد راشد:

– موافق... وبنفسي أقدمه لك.

سكت الاثنان للحظات. الجو كان مشحونًا، وريح خفيفة حرّكت سعف النخيل... وكأن المكان يتنصت.

قال يوسف أخيرًا:

– لكن إذا ثبت إنك كذبت... سأكون خصمك مثل ما كنت مع فهد. وبأسوأ الطرق.

أومأ راشد برأسه، وقال:

– لكن إذا ثبت إني ابن عبدالله... هل تقبلني أخ لك؟

يوسف لم يجب. فقط استدار وخطى نحو سيارته، تاركًا راشد خلفه مع الريح... والشك.

صباح اليوم التالي وفي مكتب فهد تحديداً، في برج إداري فاخر في وسط العاصمة

كان فهد يجلس خلف مكتبه الفخم، ينظر إلى شاشة اللابتوب التي تعرض تسجيلًا من كاميرا خفية في المزرعة. أحد معارفه في الإعلام استطاع الحصول على جزء من المواجهة بين يوسف وراشد، وبالذات تلك اللحظة التي قال فيها يوسف:

"لكن إذا ثبت إنك كذبت... سأكون خصمك مثل ما كنت مع فهد. وبأسوأ الطرق."

ابتسم فهد بسخرية وهو يعيد تشغيل الجملة مرتين، ثم ضغط زر الإرسال، وأرسل المقطع إلى صحفي معروف بعنوان مثير:

"تصدع جديد في صفوف العائلة... يوسف يتوعّد 'الأخ المفقود' مثلما فعل مع أخيه."

رن هاتف فهد. كان المتصل أحد شركائه الإعلاميين:

– فهد، الخبر ضرب ترند خلال ساعة. الناس رجعت تتكلم، والرأي العام بدأ يتقسم من جديد.

– ممتاز... ندع راشد يخرج على حقيقته أمام الكل، وإذا كان صادق، يوسف يخسر صورته كحامي العدل.

– ونورا؟

– دعوها تنشغل بتحليل الـDNA ... أنا لدي خطة أخرى.

أنهى المكالمة، وفتح درج مكتبه. أخرج منه صورة قديمة ممزقة، جمّعها في يده وقال:

– راشد يمكن فعلاً يكون من دم عبدالله...

لكن هذا لا يعني إنه يستحق المكان الذي خسرت لأجله كل شيء.

في زاوية، كان أحد موظفي فهد يخرج من مكتبه متوجهًا إلى سيارة سوداء فيها رجل مجهول الملامح. سلّمه ظرفًا صغيرًا، وقال:

– فهد يريدك تتابع راشد. تحركاته، اتصالاته، كل شيء... من اليوم.

مساء اليوم التالي – شقة راشد، حي شعبي على أطراف المنطقة الشمالية من العاصمة كان راشد يجلس على الأرض، يُقلّب في صندوق كرتوني قديم، يحمل آثار نقل وترحال. أخرج منه أشياء متفرقة: صورة قديمة لوالده مع طفل، دفتر ملاحظات بخط مراهق، وشيء غريب... بطاقة إقامة باسم شخص آخر: "خالد منصور".

في الزاوية الأخرى من الغرفة، رنّ هاتفه. كان المتصل رقمًا مجهولًا.

– ألو؟

جاءه الصوت غامضًا، غير مألوف:

– راشد... أو خالد... لازلت تلعب دور الضحية؟

تجمّد راشد.

– من؟!

– لا يهم... ما يهم إنك لن تستطيع تدفن كل شي وراك. تتذكر "قضية منصور في المنامة"؟

أو نسيت إنك كنت شاهد زور... مقابل مبلغ؟

انقطع الاتصال.

تلعثم راشد وهو يحدّق في الهاتف، ثم التفت إلى الحائط، حيث كانت صورة "عبدالله" معلقة بشكل مؤقت.

تمتم بصوت مكسور:

– لم أكن أنوي أكذب... لكن كنت ناوي أبدأ من جديد.

بعد ساعات، التقى بصديقه الوحيد "سامي"، شاب بسيط يعرفه من أيام البحرين.

قال له راشد بصوت مرتجف:

– الماضي يلاحقني. كل خطوة أقول إنها انتهت... يخرج فيها طيف من الماضي.

رد سامي:

– يجب عليك أن توقف كل شيء وتحسم، وتبني حياتك على الصدق... أو تسقط من جديد وسط الكذب.

لكن صدقني... إذا طلعت نصّاب مره ثانية حتى نفسك ما راح تصدقها.

أغمض راشد عينيه وهمس:

– لكن أنا ابن عبدالله....

في هذه اللحظة، كان يوسف يراقب من بعيد، مختبئًا داخل سيارته في أحد الأزقة القريبة... وقد لمح راشد يعانق سامي بحرارة.

قال لنفسه:

– من يكون هذا؟

واضح إن راشد يخفي أكثر مما يظهر... ولازم أعرف كل شيء قبل ما تطلع نتيجة التحليل.

وفي أحد الصباحات وفي حيّ قديم في المنطقة الشمالية من العاصمة امرأة في الثلاثين من العمر، أنيقة المظهر، بشعر أسود مرفوع بعناية وملامح تجمع بين الحزم والغموض، كانت تتصفح بريدها الإلكتروني على طاولة المطبخ. توقفت عند رسالة بعنوان:

"الاسم الذي تحاولين نسيانه... عاد إلى الواجهة"

ضغطت على الرسالة، فظهرت صورة واضحة لراشد وهو خارج من مقر المحكمة، وتحتها تعليق صحفي:

"راشد بن عبدالله يظهر في الرياض ويطالب بحقه في إرث رجل الأعمال الراحل عبدالله بن ناصر."

تجمّدت أصابعها. ثم همست:

– لن يتغيّر...

ثم أخرجت هاتفها وكتبت رسالة:

"راشد... أو يمكن أقول خالد؟

اشتقت تعرف من اللي عندها صورة بنتك؟

التقِ بي... أو يوسف سوف يعرف كل شيء."

- مساءً في شقة راشد كان يتقلب قلقًا حين وصله الإشعار. فتح الرسالة، وشحب وجهه.

وقف فجأة كأن أحدًا لكمه في صدره.

ثم أمسك مفاتيحه واندفع خارجًا... الهاتف يهتز في يده برسالة جديدة:

"فندق لورانس – غرفة 503.

أعتقد إن لدي ما يخص نسبك... لكن ليس لإثباته، بل لهزيمتك به."

في الفندق، دخل راشد الجناح بخطوات متوترة. وجدها تجلس بكل هدوء، تشرب قهوتها، وفوق الطاولة صورة صغيرة لفتاة بعمر خمس سنوات... تشبهه بشكل لا يُصدّق.

قال بذهول:

– أماني...؟ إنتِ ما زلتِ...

قاطعت كلامه بهدوء:

– حيّة؟

أنا كنت حية طول الوقت... بس أنت من دفني لما اخترت تهرب وتخليني أواجه الحمل، والفضيحة، والوحدة.

اقترب من الصورة وقال:

– هي بنتي؟

– للأسف... نعم. بنتك، واسمها لينا. وهي لا تعرف عنك شيء... لكن مصيرها تعرف.

– والان ماذا تريدين؟!

أجابت وهي تنهض:

– أريد حقي. حقي كأم، وكامرأة كنت معك في وقت كنت تصنع فيه "نسخة جديدة" من نفسك.

سأذهب للإعلام، أو للمحكمة... حسب اختيارك.

راشد جلس على الكرسي ودفن وجهه في كفّيه.

في الخارج، كان أحد رجال فهد يلتقط صورًا للقاء من باب الجناح الموارب وابتسم ابتسامة خبيثة.

منتصف الليل – مكتب إعلامي سري تابع لفهد، في طابق أرضي بلا لافتة

كان فهد يجلس أمام فريق صغير من الإعلاميين والمصممين، وعلى الشاشة الكبيرة تُعرض لقطات مصورة من لقاء راشد بالمرأة الغامضة "أماني". تم إبطاء المشهد عند لحظة دفع الصورة فوق الطاولة، وظهور الطفلة الصغيرة.

رفع فهد إصبعه وقال:

– هذه اللحظة... يجب أن تكون بداية الفيديو. يجب أن تكون صدمة.

أشار إلى أحد الصحفيين:

– أريد عنوان يهزّ الرأي العام. الناس لابد تعرف وجه راشد الحقيقي، ويعرفوا إن يوسف لم يخطئ حين صدقه فقط... بل ساعده يدخل على البيت وهو في الأساس لديه عائلة مخفية، وفضائح مدفونة.

قال الصحفي باندهاش:

– لكن فهد... هذا ممكن يطيح كل القضية، حتى أنت ممكن تتضرر لو انكشفت نواياك.

ابتسم فهد بسخرية:

– لا. أنا طلعت منها نظيف... سالم تحمّل الضربة، يوسف بدأ يخسر صورته، وراشد صار قنبلة تنفجر في وجه الجميع.

ونورا هي اللي وقفت مع راشد من البداية. بكرا الإعلام يقول: "محامية العدل تدافع عن رجلٍ يخبّئ طفلة غير شرعية!"

تخيلوا الأثر؟

بعد ساعات – عناوين الصحف الإلكترونية تشتعل:

"فضيحة نسب تضرب قضية الميراث: راشد بن عبدالله متهم بإخفاء علاقة وابنة سرية!"

"يوسف يُواجه أول هزة بعد المحكمة: هل خانت المحامية نورا ثقة العائلة؟"

"فهد بن عبدالله يلتزم الصمت... والشارع يطرح سؤالًا: من فيهم فعلاً ابن أبيه؟"

في مكتب نورا – الصباح التالي

اقتحم يوسف المكتب والغضب في عينيه، يحمل هاتفه ويصرخ:

– لماذا لم ما تخبريني؟! راشد له ماضي زواج وطفلة؟

رفعت نورا عينيها من الملف، ونظرت إليه بثبات:

– لم أكن أعرف... قبل قليل فقط وصلني الإيميل. فهد سبقنا بخطوة... لكنه لا يعرف إن هناك أوراق لم نكشف بعد عنها.

– أي أوراق؟! نحن خسرنا التعاطف!

قالت بثقة:

– لكن سنكسب الحقيقة...

وصدقني يا يوسف، لو فهد يظن إن الصورة تكفي لتدميرنا، فدعه ينتظر الصورة الكاملة.

ظهيرة اليوم التالي – شقة راشد الصغيرة، الستائر مغلقة، والأخبار تتقافز على شاشة الهاتف

جلس راشد في الزاوية، ظهره للجدار، عينيه حمراء من قلة النوم. كل شيء حوله متوتر: هاتفه لا يتوقف عن الرنين، ووسائل الإعلام تنقل خبره كفضيحة.

صوت المذيعة يخرج من التلفاز:

"وقد تم الكشف عن هوية امرأة تدعى أماني العلي، والتي زعمت أنها كانت على علاقة سابقة براشد بن عبدالله، وأن لها منه ابنة غير معترف بها تدعى لينا...

وسط صمت رسمي من راشد، وتكهنات بأن القضية ستؤثر على مجريات المحكمة الكبرى للميراث.

ألقى راشد وسادته نحو الشاشة وهو يصرخ:

– كل شي راح!

رن الهاتف من جديد. هذه المرة كان المتصل سامي، صديقه الوحيد:

– راشد، لا تنهار. أماني ليست الملاك هي فقط تمثل إنها ضحية.

– كيف يعني؟

– أماني لها سجل... كانت تعمل في النصب مع شخص معروف في البحرين، واستغلت علاقتها فيك حتى تستدرجك. أنا حصلت عنها شي خطير... بس لازم تشوفه بنفسك.

بعد ساعات، اجتمع راشد وسامي في مقهى بعيد عن الأنظار. فتح سامي اللابتوب وأظهر راشد تسجيلًا صوتيًا قديمًا، كانت فيه أماني تتحدث مع رجل مجهول تقول فيه:

إذا قدرنا نربط راشد بعبدالله، نقدر ندخل على الخط ونكسب تعويض. البنت؟ البنت كرت ضغط، ليس أكثر..."

شهق راشد من الصدمة.

قال سامي:

– أماني استخدمتك زمان... وتريدك أداة من جديد. وصدقني، من فبرك الفيديو اللقاء معك، شخص غير عادي.

راشد تمتم بصوت مشوش:

– فهد... أكيد هو.

سكت، ثم وقف بتصميم لأول مرة منذ بداية الفضيحة:

– إذاً جميعهم ناوين يدفنوني، لازم أضرب أول.

في نهاية المشهد، راشد يدخل مكتب محامٍ معروف، يحمل بيده ظرفًا مليئًا بالمستندات والأدلة، ويقول بصوت واضح:

– أريد أقدّم بلاغ رسمي ضد فهد بن عبدالله... بتهمة التجسس، والتشهير، والتلاعب بالإعلام.

وفي المساء في شقة فهد، في الجانب الزجاجي المطلّ على المدينة

جلس فهد في غرفة الاجتماعات الخاصة، يتناول قهوته بهدوء ظاهري، لكن عينيه تلمعان بتوتر واضح. أمامه تقرير من محاميه الشخصي، يحمل العنوان الكبير:

"بلاغ رسمي ضدكم من راشد بن عبدالله – تهم: تجسس، تشهير، تلاعب إعلامي"

رماه فهد على الطاولة بعصبية، وقال:

من كنت أستغله صار يعض؟

نهض من مكانه وأخذ يتمشى بخطى متوترة:

– كان لابد أتوقع... جميعهم ينقلبون ضدي إذا شعروا بالخطر. حتى يوسف.

دخل أحد مساعديه بسرعة:

– فهد، هناك شيء أخطر... راشد لم يقدم فقط بلاغ. أرسل نسخة من الأدلة للإعلاميين... وفيها تسجيلات تثبت إنه كان مراقَب بدون إذن رسمي.

صمت فهد، ثم نظر له ببرود:

– طيب. نلعب على مستوى ثاني.

أخرج هاتفه واتصل برقم خاص:

– إيهاب... جهز ملف "الضربة القاضية". أماني. البنت. كل شي عندك.

وإذا راشد ناوي يدخل ساحة الصراع علني... نخليها معركة ما فيها رحمة.

سكت لحظة ثم أضاف:

حدد لي موعد مع أكبر مستشار علاقات عامة. لازم نعيد رسم صورتي قبل ما تنقلب الطاولة.

لاحقًا في تلك الليلة، كان فهد يقف على شرفته، والمدينة تحت أقدامه. قال لنفسه:

– لا يجب أن أخاف من أحد... لا يوسف، ولا راشد، ولا سالمة، ولا حتى روح أبوي.

وفي ليلة اليوم التالي – فيلا صغيرة على أطراف العاصمة

وصل فهد بسيارته. كان اللقاء سريًا مع شخصية مظلمة تُعرف بلقب "السمّاك"، رجل في الخمسين، مختص بتسويات خلف الستار، له نفوذ في أوساط رجال الأعمال والإعلام.

جلس فهد قبالته، وقال دون مقدمات:

– أريد أماني تختفي من المشهد... قانونيًا، أو إعلاميًا، أو حتى اجتماعيًا.

تريد فلوس؟ خليها تغرق فيها. تريد هدوء؟ نرسل لها تهديد غير مباشر. تريد ضوء؟ نخنق عليها الهواء.

السمّاك ابتسم:

– بسيطة... لكن لازم تعرف، إن المرأة اللي تذوقت الانتقام، صعب ترتوي بسهولة.

فهد رمقه ببرود:

– اللي ما يروّض، يُكسر.

بعد يومين، انتشرت في وسائل الإعلام رسالة موقعة باسم مجهول، تفيد بأن "أماني العلي" متورطة في قضايا احتيال مالي عام 2019 في البحرين، وجرى إخفاء هذه القضايا باتفاق مالي مع أحد الشركاء.

وفي الوقت نفسه، تلقّت أماني بريدًا إلكترونيًا يحوي صورة لها من المطار، ورسالة قصيرة:

"عيشي بهدوء... أو اختفي للأبد."

أماني فهمت الرسالة جيدًا، فأغلقت هاتفها، وحزمت أمتعتها.

في الجهة الأخرى، فهد كان يبتسم وهو يراقب الأحداث تتساقط كما خطط.

ثم طلب من مساعده:

– جهّز مؤتمر صحفي... نعلن فيه مبادرة جديدة باسمي لدعم الشباب المبدع.

نرجّع صورتنا نظيفة، والعالم تنسى إني كنت "فهد المتهم"

ضحك بخبث:

– اللعبة صارت على مستوى أعلى.

في الظهيرة – فندق "كراون بلازا"، قاعة مغلقة بحضور إعلامي محدود

جلس فهد على المنصة محاطًا بلافتات كتب عليها:

"مبادرة فهد بن عبدالله لتمكين الشباب وبناء المستقبل"

كان يرتدي بدلة رمادية فاخرة، وربطة عنق كحلية، يظهر بثقة تامة وكأنه رجل دولة لا رجل قضية. خلفه شاشات تُظهر لقطات لمشاريع تنموية وهمية، وشهادات شكر مفبركة.

تحدث إلى الحضور:

– عندما واجهتني التحديات الأخيرة، لم أختبئ. لأنّي مؤمن أن القائد يُختبر تحت الضغط.

قررت أن أوجّه طاقتي لما ينفع الوطن... لأن العائلة وحدها لا تكفي، إن لم تكن جزءًا من الوطن.

صفق بعض الحضور، فيما التقطت الكاميرات صورًا لفهد وهو يبتسم بهدوء.

خلف الكواليس – بعد نهاية المؤتمر

اقترب منه أحد رجال العلاقات العامة وقال:

– صورتك الإعلامية رجعت نظيفة، بس لا زلنا نترقب تحرك يوسف... ونورا تجمع أوراقها من جديد.

ابتسم فهد وقال:

– لم تعد أماني موجودة، وراشد أصبح شبهة تمشي على قدمين، وسالم رجع لحجمه الطبيعي.

باقي خطوة وحدة... نطفي صوت يوسف.

في المساء، اجتمع فهد بمحامٍ دولي جلبه خصيصًا من دبي، وقال له:

– أريد خطة قانونية يظهر فيها يوسف كواحد كان يحرّض راشد وأماني ضد العائلة.

نجرّ اسمه في وحل التلاعب بالمعلومات... نحط شكوك حول مشروعه الفني، ونروّج إنه كان غطاء لغسيل سمعة بعد فشله الشخصي.

رد المحامي:

– نقدر نحرّك هذا الملف... لكن نحتاج دعم من شخص داخل دائرتهم.

أشار فهد إلى شاشة حاسوبه، وكانت عليها صورة للمساعدة الشخصية القديمة لنورا... وابتسم:

– لدي المفتاح.

ينظر في مرآته، يُعدّل ربطة عنقه، ويتمتم:

– كلهم يلعبون بشرف... وأنا الوحيد الذي يعلم بأن هذه حرب.

منتصف الليل – مقهى راقٍ في حي السفارات، الجلسة الخارجية شبه خالية، وأضواء خافتة تغلّف الطاولات

دخلت ميساء، المساعدة السابقة لنورا، بخطى مترددة. كانت ترتدي عباءة سوداء ونظارات شمسية رغم الظلام، وكأنها تتهرّب من كل نظرة. جلست عند الطاولة الخلفية حيث كان فهد ينتظر، يشرب قهوته كما لو أنه زبون عادي.

قال بهدوء دون أن ينظر إليها:

– تأخرتِ.

أجابت بصوت خافت:

– فكّرت كثيراً قبل أن أتِ.

– لكنك أتيتِ... وهذا يكفيني.

ترددت ميساء للحظة، ثم قالت:

– لو انكشف إني التقيت بك... ستنتهي علاقي في نورا لأنها لا زالت تثق بي حتى بعدما قدما استقالتي.

ماذا تريد بالضبط؟

أخرج فهد ملفًا صغيرًا ودفعه نحوها:

– هذه الوثائق تثبت إن نورا كانت على تواصل مع راشد قبل بداية القضية. بشكل غير قانوني.

تريدي الحفاظ على عملك الجديد في هيئة المحامين؟ ساعديني أثبت إنها تجاوزت حدودها.

ميساء نظرت في الملف... تعرّفت على توقيع نورا، وعلى تواريخ المراسلات.

همست:

– بعض هذي المستندات فعلاً صحيحة... لكن ناقصة السياق. نورا كانت تحاول تحمي يوسف منك!

ضحك فهد بخفة:

– السياق غير مهم في الإعلام... الصورة تكفي.

وأنتِ ستكونين مصدر مسرّب "موثوق"... شخص عمل معها ويعرف أخطاءها.

سكت قليلًا، ثم وضع ظرفًا على الطاولة:

– هذه مكافأتك.

لكن قرارك الآن... تخرجين من اللقاء وأنتِ موظفة ذكية... أو تذهبين لنورا وتفقدين كل شي.

ميساء نظرت إلى المال، ثم إلى فهد... ثم مدت يدها ببطء نحو الملف، وضمته إلى حقيبتها.

وفي فجر اليوم التالي – شقة ميساء، الدور الرابع، إضاءة خافتة وصوت مكيف يملأ الصمت

جلست ميساء وحدها، وضعت الملف الذي أخذته من فهد على طاولة صغيرة، وسحبت اللابتوب. أصابعها ترددت فوق لوحة المفاتيح... نظرت إلى شاشة الهاتف حيث كانت رسالة فهد لا تزال مفتوحة:

الفرصة لا تأتي مرتين. الملف هذا تذكرتك للسطح.

أغلقت الرسالة، وفتحت الملف... قلبت الصفحات واحدة تلو الأخرى، وعيناها تمتلئان بتناقض: بعض الأوراق فعلاً خطيرة، ولكن التوقيت... والطريقة... والخداع الذي رأت فهد يمارسه، جعلها تتنفس بقلق.

في تلك اللحظة، أخرجت هاتفها وبدأت تسجيل مذكرة صوتية:

– "إلى من يهمه الأمر... أنا ميساء، المساعدة السابقة للمحامية نورا

اليوم قابلت فهد بن عبدالله، وطلب مني أشارك مستندات لتشويه سمعة نورا. الوثائق بعضها حقيقي، لكن استخدامها في سياق مشوّه يهدف لضرب شخص شريف وقف ضد فساده.

أنا لم أكن أنوي الخيانة... لكن الخوف ضعّفني. ولهذا، أقر بكل ما حدث... وسأرسل نسخة من هذا الملف إلى نورا."

أغلقت التسجيل، ثم ضغطت إرسال.

أرفقت التسجيل مع ملف مسحوب ضوئيًا، وأرسلته إلى بريد نورا الشخصي برسالة قصيرة:

"أنا آسفة... لكن الآن قررت أقف في الصف الصحيح."

ثم قامت بحذف رقم فهد من هاتفها، ومسحت كل الرسائل، ووقفت أمام المرآة.

قالت بصوت خافت:

– السطح ليس دائمًا مكان النجاح... أحيانًا هو الهاوية.

في الصباح الباكر – مكتب نورا في الطابق السابع، ضوء الشمس يتسلل عبر النوافذ الواسعة

كانت نورا جالسة على مكتبها، ترتب أوراق الجلسة المقبلة، وجهها مرهق لكنه مشرق بالعزيمة. جهاز الحاسوب يرن بإشعار جديد.

"بريد وارد: من – ميساء "

رفعت حاجبيها بدهشة. فتحت الرسالة بحذر، وعيناها اتسعتا وهي تقرأ السطر الأول... ثم استمعت إلى المذكرة الصوتية.

هدوء غريب حلّ بالمكتب، حتى مساعدتها توقفت عن الحركة حين رأت تعابير وجه نورا تتغير.

أنهت نورا الاستماع، أغلقت اللابتوب ببطء، وقالت لمساعدتها:

– اجّلي كل مواعيد اليوم... لدي عمل من نوع أخر.

نهضت، ووقفت أمام النافذة تطل على المدينة، وعقلها يعمل بسرعة البرق.

همست:

– فهد يلعب أقذر من قبل... لكن ميساء أعادت التوازن.

فتحت هاتفها واتصلت على يوسف، وحين رد، قالت دون مقدمات:

– يوسف، اللعبة انكشفت. فهد حاول يضربني باستخدام بمساعدتي السابقة... لكن ارتدّت عليه.

الملف في يدي، والأهم... لدي دليل صوتي على تدخله وتلاعبه بالشهود.

يوسف رد بانفعال:

– يعني نقدر نرفع عليه دعوى جديدة؟

– ليس فقط دعوى... نقدر نفتح الباب لقضية أكبر، تشمل التشهير، التأثير على مجريات العدالة، والضغط على الشهود.

– المعركة دخلت مرحلة جديدة.

منتصف النهار – مكتب فهد الخاص، طابق مرتفع يطل على قلب العاصمة

دَلف مساعده الشخصي بخطوات سريعة، وجهه متوتر، وهو يحمل جهازًا لوحيًا. لم يكن مضطرًا للكلام، ففهد كان يحدق في الشاشة حيث تُعرض الآن مقالة صحفية عاجلة:

"مصدر مجهول يفضح محاولة ابتزاز وتضليل في قضية ورثة عبدالله ... تسجيل صوتي يُشير إلى تورّط شخصية نافذة."

تشنّج فك فهد، أخذ الجهاز منه، ضغط زر التشغيل، واستمع لصوت ميساء وهي تقول:

"قابلت فهد بن عبدالله... وطلب مني أشارك مستندات لتشويه سمعة نورا... الوثائق بعضها حقيقي، لكن استخدامها في سياق مشوّه يهدف لضرب شخص شريف

رماه على المكتب بعنف، وانفجر:

– خائنة... بنت الـ...

دار حول نفسه كالمفترس، أمسك هاتفه، اتصل على أحد رجاله:

– أين هي؟! أحتاج موقعها خلال ساعة. إذا سافرت، رجعوها.

أغلق المكالمة ثم صاح في مساعده:

– ميساء كانت ورقتنا الذهبية، والآن صارت قنبلة موقوتة!

ونورا تستغل هذا الشي وتحوّله سيف على رقبتي.

جلس على الكرسي، وضرب الطاولة بقبضته:

ثم تذكر شيئًا... فتح هاتفه، وكتب تغريدة شخصية:

"في وقت كثرت فيه الإشاعات، نذكّر أن صوت الحقيقة لا يُشترى ولا يُفبرك. نثق في العدالة، ونرفض أن تُشوّه القضايا العائلية لمصالح شخصية."

ثم همس لنفسه:

إن لم أستطع أن أسكتهم... سأخرّب الساحة كلها.

المساء – منزل سالمة، غرفة الجلوس، تلفاز على قناة إخبارية تنقل مستجدات قضية ورثة عبدالله

كانت سالمة تجلس على الأريكة، تحمل فنجان قهوة لم تشرب منه شيئًا، شاردة الذهن، بينما ليان تقف قرب النافذة تتابع الخبر بعينين مليئتين بالقلق.

المذيع يقول:

"مصدر صوتي يكشف محاولات لتشويه سمعة المحامية نورا، عبر استغلال موظفة سابقة... والأنظار تتجه إلى فهد بن عبدالله كمشتبه رئيسي."

وضعت سالمة الفنجان على الطاولة، ثم قالت بصوت منخفض:

– يا بنتي... ما الحاصل فهد ما وقف... ما تعب؟

ليان التفتت، اقتربت وجلست قربها:

–فهد صار يحارب بنوايا سوداء من كل زاوية.

لكن الشيء اللي صار مع ميساء قلب الطاولة.

تنهدت سالمة وقالت:

– يوسف... ولدي... كيف يتحمّل كل هذا الضغط؟ من أخوه؟ من كان يفترض يكون سند؟

أمسكت ليان يدها وقالت بحنان:

– لا تخافين عليه، خالتي... يوسف أقوى من قبل.

هو ما عاد ذلك الولد اللي ينسحب للظل. صار يعرف يواجه، وبقلبه حب، وبظهره أمّ مثلك.

أدمعت عينا سالمة، وهزّت رأسها:

– أنا خفت عليه كثير... لكن الأن، أنا فخورة.

وفخورة بنورا... وبكل شخص وقف مع الحق.

ثم قالت ليان، وعيناها لامعتان بعزم:

– أنا سأعمل مع نورا... برسم سلسلة لوحات عن قضية يوسف، عن التحوّل، عن كسر السلاسل.

الناس لازم تعرف القصة من زاويتنا، وليس من إعلام فهد.

ابتسمت سالمة، وقالت بهدوء:

– سلاحكم القلم... والريشة... والصدق.

وهو ما عنده غير الخوف والفلوس.

في الصباح التالي – مكتب نورا، غرفة اجتماعات زجاجية، أوراق متناثرة، وأجهزة لابتوب مفتوحة

كان يوسف جالسًا إلى جوار نورا، أمامهما لوحة بيضاء كُتبت عليها كلمات بخط كبير:

"الهجوم الاستراتيجي – ثلاث جبهات"

نورا بدأت الحديث، نبرة صوتها قوية وثابتة:

– الآن بعد ما الملف والتسجيل صاروا بيدنا، لازم نتحرك بسرعة قبل لا يبدأ فهد حملة مضادة أقوى.

خطة الهجوم فيها ثلاث جبهات:

١. الجبهة القانونية:

– نرفع دعوى رسمية ضد فهد بتهم:

التأثير على شاهد بالقضية.

محاولة تشويه سمعة محامية رسمية.

ابتزاز وتضليل جهة قضائية.

قال يوسف:

–احتمال تُعاد النظر في بعض شهاداته السابقة... ونكشف علاقته بالورشة وبالتحويلات المالية اللي خبّائها.

٢. الجبهة الإعلامية:

– تجهّزنا مع صحفيين مستقلين لنشر القصة الكاملة، من البداية للنهاية، بالأدلة... وليس مجرد إشاعات.

وسنظهر يظهر اسم ميساء كمصدر شجاع كشف فساد فهد.

يوسف عَقّب:

– وليان تساعدنا بصريًا... ندمج الفن مع القصة، نخلي الجمهور يحسّها.

٣. الجبهة العائلية:

– نتواصل مع كل أفراد العائلة المترددين... نكشف لهم الحقيقة.

سالم صار معنا، وراشد موقفه صار ضعيف. نقدر نكسب ناس أكثر.

قال يوسف وهو يحدق في اللوحة:

– يعني نخرج من وضعية الدفاع... ونبدأ نكسر جدران الكذب التي بنوها سنين.

نورا نظرت له وقالت بابتسامة خفيفة:

– تمامًا. إذا كانت هذه حرب... فأول طلقة لنا اليوم.

نهضت، ومدّت يدها ليوسف:

– جاهز نبدأ؟

أخذ يدها وقال بثقة:

– أكثر من أي وقت.

وفي المساء – إحدى القنوات الرقمية المؤثرة على يوتيوب، برنامج تحقيقي مستقل بعنوان "ما وراء القضية"

المُقدمة، شابة جريئة ذات نبرة لاذعة، جلست أمام الكاميرا وعلى الطاولة أمامها مستندات مطبوعة، شاشة خلفها تعرض عنوان الحلقة:

"من يكذب في قضية ورثة عبدالله؟ حقائق تهزّ العائلة!"

بدأت بصوت واضح:

– كثير من تابع قضية الورثة التي اشغلت المجتمع... ولكن اليوم، ولأول مرة، وصلتنا وثائق حصرية وتسجيل صوتي يكشف محاولات خطيرة للتلاعب بالقضية.

عرضت مقتطفًا من تسجيل ميساء، ثم ظهرت لقطات للملف المسحوب الذي أرسلته نورا.

تابعت المذيعة:

– فهد بن عبدالله، أحد أطراف النزاع، حاول استخدام موظفة سابقة في فريق المحامية نورا، لتسريب مستندات خارج سياقها وتشويه سمعتها...

لكن ماذا حدث؟ الموظفة، "ميساء "، سجّلت اعتراف كامل وأرسلته بنفسها.

ثم ظهرت صورة نورا وهي تخرج من المحكمة بابتسامة هادئة، يتبعها تصريح منها:

"نحن لا نرد بالكلام... بل بالحقيقة."

المذيعة علّقت:

– في الوقت البعض كان يشكك بموقف يوسف بن عبدالله، يبدو أن المعطيات بدأت تنقلب...

هل نشهد سقوط أحد أقوى رجال العائلة؟

الأسابيع القادمة كفيلة بالكشف.

البرنامج حصد أكثر من نصف مليون مشاهدة خلال الساعات الأولى، وهاشتاق قضية الورثة تصدّر تصدر ترندات مواقع التواصل الاجتماعي.

يوسف تلقى رابط الحلقة على هاتفه من أحد أصدقائه، وابتسم لأول مرة منذ أيام.

في اليوم التالي – مجلس العائلة القديم، حيث كانت تُعقد الاجتماعات أيام الوالد عبدالله

جلس يوسف على أحد الكراسي الخشبية المعتّقة، ينظر نحو الباب المفتوح بترقّب. دقائق ثم دخل عمّه مبارك، الرجل الذي طالما التزم الصمت، لم ينحَز لفهد ولا وقف صراحة مع يوسف.

رجل ذو هيبة، لكن وجهه اليوم كان متعبًا، مترددًا، وكأن شيئًا ثقيلًا يجثم على صدره.

قال مبارك وهو يجلس:

– لم اتوقع تأتينِ دعوة منك، يا يوسف.

رد يوسف بهدوء:

– يمكن لانك لم تعتاد الحوار معي... وأنا تعبت من أن الكل يراقب بدون أن يتحرك.

– أنا لم أكن أراقب، كنت أتجنّب النار. العائلة صارت ساحة حرب.

– وسكوتك يا عمّ، خلى اللي مثل فهد يتمدد... ويسرق... ويفرّق.

تنهّد مبارك:

– رأيت الذي حدث بالإعلام... وسمعت التسجيل. فهد لم يكن هكذا... لكن الظاهر السنين غيّرته.

يوسف نظر إليه مباشرة:

– وأنا؟ أنا من كنت تُعتبرني "الحساس" و"ضعيف الشخصية"؟

ورأيتني حين انكسر ظهري من أبوي... وسكت.

ورأيتني لما طردني فهد من الورشة... وسكت.

ورأيتني لما رفعت القضية... وقلتوا "يوسف يكسر البيت".

سكت مبارك للحظة، ثم قال بصوت مكسور:

– كنا نظن إننا نحمي العائلة بالصمت... بس يمكن كنا نقتلها.

اقترب يوسف، ونظر له بعينين فيهما غضب وأمل:

– عمّي... كل لحظة تأخير، تعني إن فهد يكسب خطوة.

أحتاج موقف صريح منك...

صمت مبارك لحظات طويلة... ثم قال:

– أنا لا أعرف أواجه فهد وجهاً لوجه... بس أعرف أكتب شهادة.

وسأكتب كل اللي أعرفه عن الورشة، وعن فهد، وعن تحويلات قديمة شفتها بأيام الوالد.

مدّ يده ليوسف:

– تأخرت كثيراً، لكن اليوم... أنا معك.

ابتسم يوسف لأول مرة بصدق، وقال:

– لم تتأخر... لأن العدل، ليس له تاريخ انتهاء.

منتصف الليل – مكتب فهد، الأنوار خافتة، الجو ثقيل، وهدوء يسبق العاصفة

رنين هاتفه قطع الصمت، كان الاتصال من "منصور" أحد رجاله المقرّبين. فتح المكالمة دون تحية:

– تكلم.

– عمك مبارك... كتب إفادة. ووقّعها رسميًا عند كاتب العدل. المعلومات التي قدّمها تثبّت كلام يوسف عن التلاعب في ملكية الورشة، وتاريخ الشراكات.

سكت فهد للحظة، كأنه لم يستوعب.

– تقصد... مبارك؟ عمّنا؟ اللي طول عمره يقول "أنا على الحياد"؟

– نفس الشخص... وراسل نسخة من الإفادة للمحكمة، ونورا بترفعها في الملف الجديد بكرة.

أنزل الهاتف ببطء، نظر أمامه إلى لوحة كبيرة على الجدار لوالده "عبدالله"، ثم وقف واقترب منها، وحدّق فيها ببرود.

– حتى من كنت أظنهم لن يتدخلون... تدخلوا.

ضرب بقبضته أسفل الإطار وقال:

– اللعبة لم يعد فيها متفرجين... الجميع صار لاعب.

عاد إلى مكتبه، فتح خزنة صغيرة خلف الكتب، أخرج منها ملفًا قديماً، عليه ختم قديم باسم شركة العائلة الأولى.

– إذا هم اختاروا يقلبون الطاولة... فأنا من سيقلب التاريخ كله.

فتح الملف، صفحاته مليئة بتفاصيل مالية قديمة، وتحويلات مشبوهة...

– دعوهم يرون من الذي يوصل للقاع... ومن يغرق.

ثم التفت إلى منصور وقال:

– جهز لي لقاء مع محامي خاص جديد. وبنفس الوقت... لابد أحد يراقب يوسف وعمي مبارك... كل خطوة... كل اتصال.

في اليوم التالي – فجراً، في شقة سالم بن عبدالله، أصوات جرس الباب تتكرر بشدة

سالم استيقظ مذعورًا، فتح الباب ليجد أحد حراس الأمن في البناية ومعه مغلّف بني كبير.

– "وصلت هذه من مكتب محاماة خاص... باسم فهد بن عبدالله."

في الداخل، فتح سالم المغلف بيدين مرتجفتين... وما إن قرأ أولى الصفحات حتى جلس على أقرب كرسي.

كانت وثائق رسمية تُفيد بأن فهد قدّم طلب لطعن في صحة الوصية، بزعم أن والده كان تحت تأثير نفسي وعقلي غير سليم في السنوات الأخيرة من حياته!

في نفس اللحظة – منزل راشد

راشد تلقّى اتصالًا من سكرتيره القانوني:

– "أستاذ راشد... يبدو أن فهد فعّل بندًا مهملًا في نظام الميراث القديم، ويطالب بإعادة تقسيم التركة كاملة، بمن فيهم... أنت."

– "أنا؟!"

– "نعم... هو يدّعي أن وجودك كطرف غير موثق بكشف نسبك الكامل قد يمنعك من الإرث إن ثبت أن صك الاعتراف بك متأخر."

منزل مبارك

المكالمة ذاتها، ولكن هذه المرة فهد يُطالب المحكمة بفتح تحقيق شامل في تصرفات مبارك المالية خلال عهد الوالد، بزعم أنه أخفى مستندات مهمة.

وفي لحظة واحدة... تحوّل الجميع إلى مستهدفين.

في مجلس العائلة – اليوم ذاته

سالم، راشد، مبارك، وحتى يوسف مجتمعون في منزل سالمة، والوجوه مشدودة.

قال سالم بعصبية:

– فهد مجنون! ناوي يسقط السقف على الجميع... حتى لو إنه تحته!

رد راشد:

– هو لا يريد الان

ان يربح القضية... هو يريد ينتقم... من كل أحد وقف بوجهه.

قال مبارك بهدوء مكسور:

– أخطأنا لما ظنّينا إنه يوقف عند حدود العائلة.

أما يوسف، فوقف وقال:

– لا... هو لم يخطئ... نحن من كنا ندفن وجوهنا في رمل الأخوة.

لكن الأن، يجب أن نوقف مع بعض ليس كأفراد، بل كعائلة ولو لأول مرة.

بعد عدة أيام وبعد أحداث كثيرة وفي مساء يوم أحد – قاعة صغيرة داخل مركز استشارات قانونية مستقل، تُنيرها مصابيح دافئة، وأمام الشاشة الكبيرة يجلس: يوسف، سالم، راشد، مبارك، والمحامية نورا

على الطاولة أمامهم وثائق، ملفات، وخطة عنوانها العريض:

"مبادرة استرداد الإرث... وعد العدالة"

بدأ سالم بالكلام، صوته أكثر اتزانًا مما بدا عليه صباحًا:

– تعبنا من التفرقة... ومن الانتظار. كل واحد فينا تضرر من فهد بشكل مباشر.

والأن يجب أن نتحرك كـ جبهة موحدة.

أكمل راشد:

– اجتمعنا على صيغة قانونية لرفع دعوى جماعية ضد فهد، تشمل:

التلاعب بإرث العائلة.

استغلال النفوذ.

الابتزاز والتشهير.

وعرقلة سير العدالة.

قال مبارك بهدوء:

– وأنا سأقدّم إفادات كاملة عن الورشة، وعن سجلات قديمة لم أخرجها من سنوات... كانت مخزنة لدي، وبها أدلة على تلاعب فهد بعد وفاة عبدالله.

ثم تحدث يوسف، نظر للجميع بعينين متوهجتين:

– أول مرة نضع خلافاتنا جانبًا... ونكون عائلة في وجه من قرر يكسر كل شيء.

نورا عرضت على الشاشة أول خطوات التحرك:

1. تقديم الدعوى الموحدة غدًا صباحًا.

2. تنظيم مؤتمر صحفي صغير توضح فيه العائلة موقفها أمام الإعلام

3. إصدار بيان مشترك باسم جميع الأطراف المتضررة.

ثم قالت بنبرة صارمة:

– فهد زرع الفوضى داخل بيتكم... والآن، ستزرعون أنتم الحقيقة في قلبه.

يجب أن تكونوا ثابتين... لأن المعركة لم تنتهي، هي اليوم بدأت.

الجميع وقف، ومد يوسف يده في منتصف الطاولة...

سالم وضع يده فوقه، ثم راشد... ثم مبارك.

قال يوسف:

– للعائلة... والحق.

وردوا جميعًا:

– للعائلة... والحق.

اليوم التالي – منتصف النهار، فندق في قلب المدينة، قاعة مؤتمرات متوسطة الحجم

الكاميرات مصطفّة، وعدة قنوات بدأت تنقل الحدث تحت عنوان:

"عائلة عبدالله بن فهد تخرج عن صمتها... خطوة جماعية ضد التلاعب بالإرث"

الجمهور خليط من صحفيين، محامين، متابعين، وعدد من الشخصيات العامة.

يقف خلف الطاولة خمسة مقاعد... جلس فيها: يوسف، سالم، راشد، مبارك، والمحامية نورا.

بدأت نورا بالكلمة، بثقة هادئة:

– نشكركم على الحضور.

نحن هنا اليوم لا لإثارة الرأي العام... بل لحماية ما تبقى من شرف عائلة كادت أن تنهار تحت وطأة الطمع.

رفعت ملفًا أمامها:

– هذه دعوى موحدة، وقعها كل من ترونه أمامكم، وفيها تفاصيل التلاعب، الشهادات، التهديدات، وحتى المخالفات المالية التي تمت خلال السنوات الماضية.

تحدث يوسف بعد ذلك، صوته يحمل صدقًا مؤلمًا:

– كنت أعتقد أن المعركة ضد الظلم شيء فردي... لكن اكتشفت إن بعض المعارك تحتاج "ظهر".

وهذا الظهر صار موجود اليوم... وأقولها أمام الجميع:

لم يعد فهد يمثلنا... ولا يمثل اسم والدنا.

ثم جاء دور سالم:

– أنا أخطأت حينما سكت... حينما خفت... حينما حسبت إن السكوت حماية.

لكن اليوم، أوقف مع يوسف، وأقول لكل من تابع القضية:

لا أحد فوق العائلة... ولا فوق القانون.

تابعت الكلمة بعد ذلك بتوقيع رمزي على نسخة من الدعوى أمام الإعلام، ثم رفعت نورا النسخة وقالت:

– هذه بداية جديدة... لا انتقام فيها، بل استرداد لما سُلب.

بدأت الأسئلة من الصحفيين تنهال، وكان أبرزها:

– هل تتوقعون أن يرد فهد بهجوم جديد؟

ردت نورا بهدوء:

– فهد بن عبدالله حرٌ في أن يختار طريقه... ونحن اخترنا طريق القانون.

– هل هناك خطر من إفشاء أسرار عائلية تمس سمعة الجميع؟

أجاب راشد:

– السمعة التي تُبنى على كتمان الظلم، لا تستحق أن تبقى.

ووسط التصفيق، ختم يوسف بكلمة أخيرة:

– لا نحتاج أن نكسب تعاطف... نحتاج نكسب راحة ضمير.

والحق حتى لو تأخر... لا يُهزم.

تصدّر وسم مؤتمر عائلة عبدالله الترند خلال ساعة، مع موجة من التأييد الشعبي، وتعليقات مليئة بالإعجاب بالشجاعة والوضوح.

في أحد أحياء المدينة، سيارة فاخرة تتوقف أمام عمارة مهجورة جزئيًا

تنزل من السيارة امرأة ترتدي عباءة أنيقة ونقابًا يغطي أغلب ملامحها... خطواتها واثقة، وعيناها تشي بأن خلفها تاريخًا طويلًا لم يُروَ بعد.

إنها "جواهر" ـــ أخت عبدالله، الخالة الغائبة منذ سنوات، التي انقطعت عن العائلة بعد خلاف غامض مع فهد، وظنّ الجميع أنها لن تعود.

تصعد الدرجات بصمت، حتى تصل إلى شقة صغيرة، وتطرق الباب ثلاث طرقات سريعة.

يفتح الباب محامٍ مسنّ، اسمه "ثابت"، يظهر عليه التوتر فور رؤيتها:

– مستحيل...! جواهر؟ بعد كل هذا الغياب؟

قالت بهدوء:

– الوقت حان ... كنت ساكتة لأن السالفة لم تكن واضحة وقتها... لكن الأن انقلبت الدنيا على أولاد عبدالله، والكل يحاول يدفن الحقيقة؟ عرفت إن سكوتي صار مشاركة في الجريمة.

تجلس على كرسي خشبي قديم، تخرج من حقيبتها مغلفًا بنيًا مكتوب عليه بخط يدوي:

"وصية عبدالله بن فهد – النسخة المحفوظة"

قال ثابت مذهولًا:

– من أين لكِ هذه؟!

قالت بنبرة تقطع الشك:

– عبدالله أعطاني نسخة لما رأى فهد يتمادى، وقال لي: "إذا صار يوم وانقلب كل شيء، أمانة تخرجي هذه الورقة".

واليوم... جاء هذا اليوم.

تفتح الظرف أمامه... الوثيقة مكتوبة بخط عبدالله، موقّعة وموثقة بشاهدين اثنين، وتحمل بنودًا تُناقض تمامًا ما أعلنه فهد سابقًا عن التوزيع.

أهم ما فيها:

تحديد حصة يوسف بوضوح، ومنحه مسؤولية معنوية عن الورشة.

استبعاد فهد من إدارة أي أملاك دون موافقة جماعية.

توجيه مباشر بحماية سالمة، أم يوسف، ومنحها صلاحية إدارة شؤون مالية حتى بعد الوفاة.

قالت جواهر بثبات:

– غداً سأذهب إلى المحكمة... وأعيد تعريف العائلة من جديد.

وإذا كانوا يظنون إن من غاب ليس له صوت... سيسمعون صوتي في وجه فهد، عالي.

وفي اليوم التالي في المحكمة، القاعة تمتلئ بالحضور والصحافة، الأعين مشدودة نحو الباب الرئيسي

الجلسة على وشك البدء، وفهد جالس بين محاميه، ونورا تقف بثقة إلى جانب يوسف، الذي بدا أكثر صلابة من أي وقت مضى.

همسات في القاعة...

– يقولون هناك شاهدة جديدة؟

– يمكن مفاجأة ثانية من نورا؟

فجأة...

يُفتح الباب بهدوء، ويتوقف الزمن للحظة.

تدخل "جواهر"، بشموخٍ هادئ، ترتدي عباءة ملكية الطراز، تزيل النقاب عن وجهها، لتظهر امرأة في الخمسينات، ملامحها قوية، تشبه عبدالله كثيرًا.

تتجه نحو منصة الشهود دون أن تلتفت لأحد، كأنها تعرف مكانها من قبل أن تصل.

همسات تتحول إلى ضجة

"جواهر رجعت؟!"

"هذه أخت عبدالله؟ مستحيل!"

"الملف انقلب!"

المحامية نورا تتنفس بعمق، وتهمس ليوسف:

– هذه... بداية النهاية لفهد.

فهد يقف بغضب من مقعده، يرتجف، يصرخ:

– لماذا الأن؟!

أنتِ لا علاقة لكِ، هذه قضية خاصة في العائلة!

لكن القاضي يطرق بمطرقته:

– اجلس يا فهد... الشاهدة طلبت الحضور بإذن رسمي... ونحن نسمعها.

تصعد جواهر إلى منصة الشهادة، تأخذ الملف البني من حقيبتها، وتقول بصوت ثابت:

– هذه وصية أخوي عبدالله الأصلية... واليوم أقدمها، بعد ما شفت كيف تم التلاعب، والتهميش، والخيانة من أقرب الناس له.

– عبدالله قال لي: "من يغدر بولده، لا يجب أن يكون منّي... وإذا صار يوم واحتاجني، أكون أنا صوته".

ثم نظرت مباشرة إلى فهد، وقالت:

– اليوم... أنا صوت عبدالله اللي تم كتمه.

وسط دهشة القاعة، دمعة في عيني سالمة، نظرة امتنان في وجه يوسف، وذهول مطلق على ملامح فهد.

في ردهة المحكمة، بعد انفضاض الجلسة، وصوت خطوات متفرقة يتردد على البلاط الرخامي البارد.

جلست "سالمه" على أحد المقاعد الخشبية، متكئة بيدها على عكاز خفيف، عيناها دامعتان من لحظة لم تكن تتخيل حدوثها...

ظهور جواهر، تلك التي غابت سنوات، ثم عادت كجدارٍ واقٍ، وصوتٍ لا يُشترى.

تتقدّم جواهر نحوها بهدوء، تقف أمامها لحظة... ثم تجلس بجانبها دون أن تنطق، تشعر الاثنتان أن الصمت أبلغ من ألف كلمة.

بعد دقائق من السكون، قالت سالمة بصوت متردد:

– لم أتوقع أن تعودين.

جواهر، بابتسامة هادئة:

– ولا أنا توقعتني... لكن وجع يوسف هو من رجعني قبل ما ينهار كل شيء باقي من عبدالله.

سالمه تهمس، وفي صوتها غصة:

– أنا حاولت... وكنت لحالي. الكل صار ضدي.

– لستِ لحالك، سالمة... أنا كنت أرى من بعيد، وأتألم، وكان في شيء يردّني... خوفي من فهد، من الماضي، من وجع قديم ما اندفن.

سالمه التفتت نحوها، والدموع تلمع في عينيها:

– تتذكرين لما طردك فهد؟ لما صرتِ تحلفين إن عبدالله كتب وصية ثانية؟ ما صدقنا وقتها...

جواهر ابتسمت، وقالت نعم لم يصدقني أحد.

ثم مدت يدها، أمسكت يد سالمة بقوة:

– لكن الأن... أنا معك.

أنا مع يوسف.

ومهما حاول فهد، ما عاد يصير الصوت الأقوى.

صار لنا ظهر.

سالمه بكت بصمت، دموع ناعمة على خدّها، ثم قالت:

– رجعتِ في وقت نحتاجك فيه أكثر من أي وقت...

وبصراحة؟ عبدالله كان محظوظ إن له أخت مثلك.

تتبادل النساء نظرة صافية، فيها ألم وخذلان، لكن أيضًا فيها بداية شفاء...

ثم تنهض جواهر، وتقول:

– قومي... هناك معركة لم تنتهي... وقلوبنا هي من ستكتب باقي الحكاية.

ليل هادئ – منزل سالمة، الإضاءة خافتة، ويوسف يقف قرب النافذة، يتأمل ضوء القمر ينعكس على أوراق الزيتون في الحديقة الصغيرة.

دخلت والدته بهدوء، تتبعها جواهر.

كان يعلم أن اللقاء حصل، لكن لم يكن مستعدًا لما شعر به حين رأى الاثنتين سويًا... وكأن الزمن القديم انبعث من رماده، لكن هذه المرة ليحميه لا ليخذله.

جواهر نظرت إليه بابتسامة دافئة:

– كبرت يا يوسف... عيونك نفس عيون عبدالله لما كان يتحدى الكل بكلمة.

اقترب يوسف خطوة، صوته مختنق:

_صدق، ما تخيلت إنك تطلعين فجأة، وتقلبين كل شيء.

جواهر بهدوء:

– لأنك نسيت إنه لك سند وظهر أنا وأمك وكل من عرف عبدالله.

اقترب منها يوسف، نظر في عينيها مباشرة، ثم قال بنبرة عميقة:

– أنا... كنت أشعر إني أقرب للهزيمة من أي وقت.

– لكن اليوم، وإنتِ واقفة ضد فهد، حسّيت إن هناك شيء رجع... شيء حقيقي.

رجعت كرامة الوالد. وكرامتي أنا بعد.

تقدمت سالمة، وضعت يدها على كتف ابنها:

– لا تنسى، يا يوسف... في عز كل هذا الوجع، هناك أشخاص عادت تنحاز للحق.

يوسف جلس على الأريكة، أنزل رأسه لثوانٍ، ثم رفعه وقال بحزم:

– غداً... نبدأ بخطة جديدة. لن ننتظر دفاع... يجب أن نهاجم.

وعلى فهد أن يذوق قسوة الهزيمة.

نظرت له جواهر بعينين لامعتين:

– وأنا معك.

لكن أوعدني، يا يوسف... لا تدع الغضب يصبح طريقك.

من يريد الحق، لابد يكون أنظف من خصمه.

يوسف تنهد، ثم ابتسم لأول مرة منذ أيام:

– اتفقنا... لكن صدقيني، هذه المرة... فهد لن ينام مرتاح.

اليوم التالي في المحكمة، أجواء مشحونة بالتوتر والإثارة، حيث تسري شائعات عن تحرّك "هجومي" من فريق يوسف بقيادة نورا، بعد ظهور وصية جواهر.

القاضي يطرق بمطرقته، معلنًا بداية الجلسة.

نورا تقف، بثقة معتادة لكن هذه المرة بعينين فيهما شرارة انتصار مبكر، ثم تقول:

– سعادة القاضي، نطلب فتح بند جديد في القضية يتعلق بالتلاعب بمستندات الإرث، وإخفاء وصية أصلية للمتوفى عبدالله بن فهد، قدمتها الشاهدة جواهر بنت فهد.

القاعة تضج بالهمسات.

فهد يهمّ بالوقوف، لكن محاميه يشدّه:

– لا تتحرك... دعنا نتصرف قانونيًا.

القاضي يتفحص الأوراق، يطلب نسخة من الوصية الجديدة، يقارن التواقيع، الأختام، ثم ينظر لفريق فهد:

– هل لديكم ردّ على هذه الوثيقة؟

يجيب المحامي بتوتر:

– نطلب تأجيلًا لفحص مصداقيتها ومطابقة الأختام...

لكن نورا تقاطعه بهدوء:

– سعادة القاضي، لدينا شاهدان من موظفي التوثيق الرسمي، سيدلون بشهادتهم خلال الجلسة لإثبات توثيق هذه النسخة، مع صور محفوظة في الأرشيف الفرعي تم تجاهلها بطريقة مريبة خلال إجراءات الحصر.

وهنا، تظهر مفاجأة أخرى...

يوسف يسلم القاضي ملفًا إضافيًا، عنوانه: "سجلات الورشة – التلاعب الإداري والمالي"

– هذا الملف يوضح كيف استغل فهد سلطته للسيطرة على أصول لم تُسجّل باسمه قانونيًا، دون الرجوع لإخوته أو احترام بنود الوصية الأصلية.

فهد يشتعل غضبًا، يصرخ:

– كذب! كل هذا الكلام مدبّر! أنتم تحاولون تدميري!

لكن القاضي يطرق مطرقته بقوة:

– الهدوء!

إذا ثبتت صحة هذه المعلومات، فنحن أمام تحقيق جديد في تهم جنائية، وليس فقط نزاع ميراث.

نورا تبتسم، تلتفت نحو يوسف وتهمس:

– أول دفعة هجومية... والبقية قادمة.

القاضي يرفع الجلسة لإعادة التقييم القانوني وإحضار الشهود الجدد...

ويوسف يخرج من القاعة لأول مرة، دون ثقل الهزيمة على كتفيه.

المساء ذاته – شقة فهد، غرفة الاجتماعات الخاصة مغلقة بإحكام، الأجواء متوترة، والوجوه مشدودة

فهد يجلس على رأس الطاولة، أمامه شاشة تعرض صور الوثائق التي قدمتها نورا في المحكمة، وصورة جواهر لحظة تسليم الوصية.

ينفجر بغضب:

– كيف فات علينا وجود نسخة ثانية من الوصية؟!

وين محامي الورثة؟ وين التنسيق؟!

يردّ المحامي، متلعثمًا:

– فهد، هذه النسخة مخفية من سنوات... ومختومة رسميًا، وشهادة جواهر قلبت المعادلة.

والمصيبة... إن يوسف ونورا يحولون القضية من نزاع ورث، إلى قضية جنائية.

يتدخل "منصور"، ذراعه الإعلامية:

– حتى الإعلام لم يعد في صفّنا. الحلقة اللي بثتها قناة "ما وراء القضية" أمس حصلت على أكثر من مليون مشاهدة، وكل التعليقات ضدك.

وكل تغريدة عنك فيها كلمة "تزوير"، و"نهب"، و"تلاعب".

يقف فهد، يلف بالغرفة، صوته أخفّ لكنه يحمل سمًّا:

– طيب... إذا هم يحاربوني بالوصايا والشهود،

أنا أحاربهم بـ "الدم".

الكل ينظر له بدهشة، فيسحب ملفًا مغلقًا، ويرميه على الطاولة:

– هذا تحليل DNA اللي حاول يوسف يمنعه قبل أشهر، وراشد رفض يتكلم عنه.

لأن النتيجة تقول إن راشد... ليس أبن عبدالله.

قال المحامي:

– إذا هذا صحيح... نقدر نفجر قنبلة إعلامية وقضائية مع بعض.

– لا... لست أنا من يفجر هذه القنبلة.

ندع راشد ينهار... والناس تكشفه.

ويوسف يدافع عن كذبة ثانية... ونورا؟ نغرقها في تهمة التستّر.

ثم يلتفت إلى منصور:

– غداً، أرسل نسخة من النتيجة لصحفي "مقرّب من راشد"، بصيغة مسرّبة.

ليلة ساكنة – منزل "جواهر"، حيث تجتمع مع "سالمه" في صالة أنيقة تغمرها رائحة القهوة العربية واللبان، لكن الجو لا يحمل راحة اللقاء... بل هدوءً يسبق العاصفة.

جلست سالمة تقلب بين صفحات الأخبار على جهازها اللوحي، بينما جواهر تراقب وجهها المتغير:

– فيك شيء؟

سالمه بصوت منخفض:

– تحسّين كأن فيه شيء يلوّح في الأفق... شيء غير طبيعي؟

جواهر تنهّدت، وأجابت بثقة:

– عيون فهد لم تكن خائفة، كانت حاقدة، ويخطط لشيء كبير.

وضعت سالمة الجهاز جانبًا، اقتربت منها وقالت:

– لا أستبعد يعمل شيء قذر...

السكوت الغريب، الإعلام الهادي فجأة، حساباته كلها ساكنة...

الا تشعرين إنها الهدنة اللي تسبق "التسريب"؟

جواهر رمقت الباب للحظة، ثم قالت بهدوء:

– فهد ما يضرب في العلن أول...

يضرب في خاصرتك، يترك الناس يشكون فيك، وبعدها يصرخ "أنظروا الخيانة!"

هو هكذا... خبيث، يتنفس سم.

سالمه تمسح جبينها بتوتر:

– يوسف يجب أن يعرف...

ونورا أيضاً لأنهم يستهدفونها مباشرة.

جواهر تنهض، تمسك هاتفها، وتقول بحزم:

نتصرف قبل لا يضرب.

– تعرفين سالمة؟

أخطر لحظة في المعركة... لما عدونا يتظاهر بالصمت.

ثم نظرت لها نظرة صلبة:

– إذا فهد يدخل الحرب بقذارة... بنرد عليه بحرب مكشوفة.

لكن نحتاج نعرف... نوع الضربة اللي يجهز لها.

صباح باكر في مكتب نورا، الأوراق مبعثرة على الطاولة، والهواتف لا تكف عن الرنين.

كانت منهمكة في مراجعة الوثائق الجديدة التي ستُقدّم في الجلسة القادمة، حين دخلت مساعدتها مسرعة، وجهها شاحب، وعيناها تفضحان ارتباكًا غير معتاد.

نورا رفعت نظرها فورًا:

– هل هناك شيء؟

مساعدتها مدت يدها بورقة مطبوعة، قالت بصوت منخفض:

– وصلني بريد إلكتروني مجهول المصدر... بداخله صورة لنتيجة فحص DNA، ما بين راشد... والمرحوم عبدالله.

نورا انتفضت واقفة، أخذت الورقة، عيناها تمرّ سريعًا على الكلمات...

ثم شهقت، وهمست:

– مستحيل...

أضافت مساعدتها:

– النص كان مختصر... لكن واضح إن المقصود منه تفجير قنبلة.

"هل يوسف يدافع عن حقه... أم عن وهم؟"

هذه كانت الجملة الختامية في الرسالة.

نورا بدأت تمشي بالغرفة، خطواتها متوترة لكنها سريعة التفكير، قالت بحدة:

– هذه ما هي مجرد ضربة ضد راشد...

هذه محاولة لهدم وحدة الفريق من الداخل.

سألتها مساعدتها بتردد:

– نواجه راشد؟

أو نكتمها مؤقتًا؟

نورا أغلقت عينيها لحظة، ثم قالت:

– يجب أن يعرف.

_ ويوسف؟ لن ندعه ينهار وسط هذه العاصفة. يجب علينا أن نحتويه قبل لا يسمعها من غيرنا.

ثم نظرت في عيني مساعدتها:

– وشيء أخر... تتبعّي البريد، وحققي إذا هناك تسريبات داخلية.

أنا لا أستبعد... إن فهد بدأ يلعب أقذر لعبة.

دخل راشد مكتب نورا بملامح مترددة، وكأن شيئًا بداخله يدرك أنه لن يخرج كما دخل.

نورا لم تقف لاستقباله كعادتها... بل أشارت بهدوء نحو الكرسي المقابل:

– اجلس، راشد... هناك شيء يجب أن تعرفه.

جلس ببطء، نظر إليها باستغراب:

نورا مدت إليه الملف المغلق، دون كلمة.

راشد فتحه، قرأ أول سطر... ثم الثاني... ثم توقفت عيناه على "تحليل النسب – عبدالله بن فهد / راشد بن ..."

صمت ثقيل نزل بينهما.

راشد رفع عينيه، صوته خافت:

– ما هذا؟ من أين لكِ هذا الملف؟

نورا بصوت ثابت:

وصلني من مصدر مجهول... لكن الرسالة واضحة.

الهدف ليس فقط فضحك... الهدف هدم يوسف. خلخلة الثقة، ضربك في ظهرك.

راشد أغلق الملف فجأة، تنفس بحدة:

– هذه إشاعة... مستحيل! أنا...

لكنه توقف، وكأن ذاكرة بعيدة صفعته.

لم تكمل نورا الحديث، لكنها كانت تراقب تقطّب حاجبيه، ارتجاف يده.

سألته بهدوء:

– راشد هل هناك شيء تعرفه عن نفسك، لم تقله ليوسف... أو لي؟

صمت... ثم همس:

– أمي... مرة قالت لي، إنهم تبنوني وأنا صغير، لكني لم أكن مصدّق. كنت أقول يمكن تمزح... يمكن زعلانه من أبوي.

ثم نكس رأسه:

– لم أفتح الموضوع. ولم أسال أحد.

نورا اقتربت بكرسيها، تحدثت بنبرة فيها قسوة محبّة:

– طيب، اسمعني...

يوسف وثق فيك. وانت كنت جزء من الفريق اللي قاوم كل اللي فعله فهد.

– لكن إذا لم صريح معنا... سيتحول الموضوع من "أخ"... إلى "عدو آخر داخل البيت".

راشد رفع نظره، في عينيه ندم متأخر:

– أنا لم أخن يوسف...

لكن، كنت خائف أواجه الحقيقة.

نورا أومأت برأسها:

– الخوف مشروع يا راشد والأن يجب أن نقرر:

هل تكون جزء منّا... أو عبء على ظهورنا؟

صمت راشد، طويلًا هذه المرة... ثم همس:

– أريد أصلح... حتى لو كان كل شيء كذب... أو كل شيء صح.

نورا قالت بهدوء وهي تقوم:

– حضّر نفسك.

لأن الهجمة القادمة... لن تفرّق إذا كنت "راشد ابن عبدالله" أو شيء آخر".

الهجوم ضدك أنت حتى يعريك من كل الاسماء.

في ورشة يوسف الفنية – آخر النهار، الألوان مبعثرة، القماش الأبيض ينتظر لمسة الفرشاة... لكن يوسف يقف في المنتصف، شارد الذهن.

دخلت نورا ومعها مساعدتها، نظرةٌ سريعة بينهما تكفي لتقول إن ما سيُقال الآن... ليس شيئًا عاديًا.

نورا اقتربت، بصوت منخفض:

– يوسف... هناك شيء يجب أن تعرفه، وكنت أتمنى نقوله لك بطريقة مختلفة، لكن الوقت ضيق، والهجمة بدأت.

يوسف رفع رأسه من اللوحة، قال بابتسامة متعبة:

– صوتك يقول إنه هناك شيء سيسقطني من جديد.

نورا جلست على الكرسي المقابل، وضعت الملف المغلق على الطاولة، وقالت:

– هذا تحليل DNA... وصلنا بشكل مشبوه.

يقول إن راشد ما هو ابن عبدالله. وإنه... ليس أخوك.

يوسف لم يتحرك. لم يرمش. فقط نظر إليها.

ثم قال:

– مزحة سخيفة من فهد؟

نورا:

– احتمال. أو أحد يتحرك بالنيابة عنه.

لكن المشكلة ليست في الملف... المشكلة إن راشد لم ينفي.

اعترف إنه سمع كلام قديم من أمه، ولم يبحث عن الحقيقة.

يوسف ابتعد خطوات... ظهره للمكتب، عيونه للنافذة، شمس تغرب في آخر الأفق.

همس:

– راشد... من وقف بصفي... من تحدّى فهد...

كان ممكن يقول لي. كان ممكن يواجهني.

تدخلت مساعدة نورا بحذر:

– يمكن كان خائف.

نورا وقفت، واقتربت منه:

– يوسف... العائلة لا تبنى على الدم فقط.

لكن على الصدق.

راشد ممكن يكون أخوك فعلاً... حتى لو ما كان ابن أبوك.

ونقدر حتى نطلب فحص DNA من جديد ربما الفحص المرسل لنا يكون مزور.

يوسف صمت، ثم قال ببطء:

– لكن الأن يجب أن أختار:

هل أثق براشد.

وأنا تعبت من الشك.

نورا وضعت يدها على كتفه:

– خذ وقتك. لكن لا تدعهم يستخدمون ألمك ضدك.

يوسف أومأ، لكنه لم يتكلم.

غادر الجميع وبقي يوسف في الورشة وحيداً.

في الساحة الخلفية للورشة – الليل، هواء بارد، وسماء صافية كأنها تنتظر انفجارًا داخليًا.

راشد وقف عند بوابة الورشة الخلفية، مترددًا، ينظر إلى الداخل حيث يتحرك يوسف بين أدواته دون أن يلتفت إليه.

أخيرًا، خطى إلى الداخل... خطواته بطيئة، وكأن كل خطوة تحمل وزن سنوات من الكتمان.

يوسف، دون أن يلتفت:

– تأخرت.

راشد وقف خلفه، صوته مهزوز:

– كنت محتاج وقت... أحاول أفهم نفسي قبل ما أحاول ابرر لك.

يوسف استدار فجأة، نظر إليه نظرة حادة... لا غضب فيها، بل صدمة مبللة بالخذلان:

– كنت أحتاج صدقك من أول يوم... لا تفسيرك بعد خراب السور.

راشد بلع ريقه، ثم قال:

– كنت دائماً أشعر إني دخيل... وأنا صغير، نظرات بعض الناس، كلمات مبطّنة...

بس كنت أهرب للرسم، للورشة، لضحكتكم... كنت أقول لنفسي:

حتى لو ما كان دمي... هذا مكاني.

يوسف:

– لماذا لم تقل لي؟ بعد كل شيء مرينا فيه؟

بعد ما وقفنا مع بعض ضد فهد؟ بعد ما اتهمونا إننا نبيع بعض؟!

راشد اقترب، رفع يده كأنه يحاول الإمساك بكلمة قال: أنا لم أرى نتيجة الفحص

– أنت أول شخص وثق بي لم أستطع أن أخاطر.

كنت خائف تفقد ثقتك فيني. أو تعتبرني جزء من لعبة فهد.

يوسف صمت، ثم قال بصوت منخفض:

– لكن سكوتك كان سبب إن الكل يشك... حتى أنا.

راشد تنفس ببطء، ثم قال:

إذا باقي شيء من الأخوّة بينا... أعطني فرصة أثبتها.

يوسف نظر إليه طويلًا...

ثم قال:

– لا أستطيع أن أقرر الآن...

لكن لو تريد أصدقك من الأن لابد تكون صادق وصريح في كل شيء.

راشد أومأ، بصمت، ثم جلس على الكرسي المقابل.

في عينيه... لمعة حزن قديم، ورغبة في انتماء لا يصنعه الدم.

مكتب نورا – منتصف الليل، الضوء خافت، وأوراق متناثرة فوق المكتب، وكأنها خريطة حرب، لا بد من قراءتها بعناية قبل أن يُطلق الرصاص القادم.

كانت نورا وحدها، لكنها لم تكن هادئة.

كانت تقلب في الملفات، تراجع التسجيلات، تعيد ترتيب الخطة خطوة بخطوة، وكأنها تعيد بناء القلعة من الداخل قبل أن تنهار من الخارج.

دخلت مساعدتها، تحمل بيدها كوب قهوة وعيناها قلقة:

– الن تذهبي للمنزل اليوم؟

نورا دون أن ترفع نظرها:

– ليس وقته.

بيت يوسف يتفكك... وفهد لن يضيع فرصة مثل هذه.

جلست مساعدتها، وقالت:

– وراشد؟ يوسف يقدر يثق فيه من جديد؟

نورا أغلقت الملف فجأة:

– لا أحتاج يوسف يثق براشد... أحتاجه يعرف كل شيء قبل فهد.

لأن القرار يكون اختياره، ليس رد فعل لصفعة جديدة.

ثم رفعت عينيها إلى مساعدتها:

– اريدك تعملين على ملف راشد من جديد...

كل شيء: تاريخه، علاقاته، حركته، وحتى المرأة اللي طلعت فجأة بحياته.

مساعدتها رفعت حاجبها:

– تقصدين ممكن يكون متورط بدون ما يدري؟

نورا:

– أو يدري وساكت...

وفي الحالتين، لازم نكون جاهزين.

ثم سحبت ملفًا آخر:

– وأنا أفتح جبهة جديدة.

ليس دفاع... بل هجوم.

مساعدتها:

– على من؟

نورا بابتسامة خفيفة، وفي عينيها بريق المعركة:

– على فهد... ليس فقط فهد.

على كل "الظل" اللي خلفه.

من يغذيه مالياً، ومن يسرب له أوراقنا، ومن يراهن على سقوطنا.

ثم أضافت:

–نطلع ملف "التحويلات القديمة"...

ونربطها بشركاته الخارجية، والأسماء المستعارة.

إذا قدرنا نثبت التلاعب المالي؟ نقدر نضربه في منطقة ما يتوقعها.

مساعدتها وقفت فجأة، وكأن الدم عاد يتدفق بعزم:

– يعني المرحلة القادمة... فيها نار.

نورا أومأت:

– وليس كل من في النار يحترق... بعضهم يولد منها.

مركز توثيق خاص – صباح رمادي، الأوراق تتنفس الغبار، والملفات القديمة تنام في الأدراج بانتظار من يوقظها.

دخلت نورا إلى الغرفة برفقة يوسف، في يدها ملفّ رفيع، وفي عينيها تصميم لا يقبل التردد.

كان يوسف يراقب المكان بدهشة وريبة، المكان بعيد كل البعد عن قاعة المحكمة أو الورشة... لكنه المكان الذي قد يغيّر كل شيء.

يوسف:

– هذه ليست محكمة، ولا مكتب محاماة... ما هذا المكان؟

نورا (وهي تتجه نحو أحد الموظفين بثقة):

– هنا نبدأ من الجذور... نبحث في أرشيف الشركات الوهمية، والتحويلات المريبة اللي تمت باسم فهد، وباسم "غيره".

الموظف قدّم لها حافظة وثائق، وأشار إلى طاولة خلفية فيها جهاز قديم للمسح الضوئي وسجلات رقمية.

نورا جلست، فتحت جهازها المحمول، وقالت:

– فهد استخدم أكثر من هوية تجارية خلال السنوات الأخيرة، بعضها بأسماء أقارب، وبعضها بأسماء أشخاص ماتوا أو سافروا.

الأموال التي انسحبت من حساب الورشة بعد وفاة عبدالله؟

لم تذهب للورثة... بل لشركات خارجية، والأن نربط الخيوط مع بعض.

يوسف جلس بجانبها، فتح دفترًا صغيرًا كان يحمله، فيه أرقام قديمة دوّنها في لحظات شك قبل شهور.

يوسف:

–هذا الرقم... كان دائماً يتواجد في كشف حساب الشركة لما كنت أراجع أوراق الورشة.

ولكن لم يتم ذكره في الاجتماعات.

نورا نظرت للرقم، وجهها تغير:

– هذا الرقم مرتبط باسم شركة باسم "الوعد العقاري المحدودة"...

لكن لما دققنا... ما فيه أي عقار، فيه تحويلات متكررة لحساب في جزر الكايمان.

والمفاجأة؟ أحد المساهمين فيها... هو "راشد"، أو شخص بنفس رقم هويته القديمة!

يوسف وقف فجأة:

– لا... لا تقولي راشد متورط مع فهد!

نورا (بهدوء):

– لا أستطيع أن أجزم... لكن إذا طلع الاسم مستعار واستُخدم دون علم راشد؟

معناته في أحد سرق هويته... أو استغلها.

وإذا كان راشد جزء من اللعبة... يجب أن نعرف قبل موعد المحكمة القادمة.

يوسف:

– لازم أواجه راشد.

نورا:

– بعد ما نكمل الملف. لازم تكون المواجهة بالأدلة.

وبينما كانت الملفات تُفتح، والروابط تُربط... كانت ملامح خريطة معقدة تتضح أمامهم.

خريطة تقودهم ليس فقط إلى قلب فهد... بل إلى ظل أكبر منه، خفيّ، ومليء بالخداع.

في مكتب فهد – مساء باهت، ستائر مسدله، والمكان أشبه بخندق لا يرى الشمس. الهاتف على الطاولة، يهتز دون توقف، والقلق أخيرًا بدأ يترك أثره على ملامح فهد.

كان يقف أمام اللوحة الزجاجية، ينظر إلى الخارج كمن ينتظر شيئًا لا يريد أن يأتي.

رنّ الهاتف مرة أخرى، هذه المرة من رقم داخلي.

رفع السماعة.

– نعم؟

جاءه الصوت من عادل، أحد رجاله المقرّبين:

– أستاذ فهد... بدأوا يفتحون ملف "الوعد العقاري"، والاسم المرتبط فيها... اسم راشد.

فهد استدار بسرعة، وعيناه اتسعتا:

– من بالضبط اللي فتح الملف؟

عادل بتردد:

– نورا ويوسف... دخلوا أرشيف الشركات، وجالسِين يربطون التحويلات القديمة.

فيه تحركات تخليني أعتقد إنهم قريبين من نقطة حساسة.

صمت فهد لثواني.

ثم قال بنبرة خافتة لكنها مشبعة بالتهديد:

– إذًا اللعبة بدأت توصل للعمق...

مشى باتجاه المكتب، وفتح أحد الأدراج السرية، أخرج ملفًا صغيرًا، عليه ختم قديم ومشبوه.

فتحه... وابتسم ابتسامة متوترة:

– هذا الملف لو نُشر، راشد ينهار، ونورا تفقد مصداقيتها...

لكن إذا استخدمته الآن، يشعرون إني خائف... وأنا لا أحب أظهر أني ضعيف.

ثم ضغط على زر في جهازه، وقال لعادل:

– فعّل الخطة "ج". خذ نسخة من ملف "تبادل الأسماء" وخليها تتسرب للإعلام...

لكن ما يكون باسمنا... باسم جهة محايدة.

أغلق الخط.

ثم جلس ببطء، وكأن الكرسي يحمل كل ثقله النفسي.

في عينيه خوف لا يعترف به، لكن الظلال حوله بدأت تتحرك.

مكتب نورا – الساعة 9:47 مساءً، الإنذارات على شاشة الكمبيوتر بدأت تومض، ومساعدتها تدخل مسرعة تحمل هاتفها بيد وقلقها في الأخرى.

– أستاذة نورا! لازم تشوفي هذا الآن!

نورا رفعت عينيها عن المستندات، استقبلت الهاتف، وإذا بصفحة خبر إلكتروني تتصدر الشاشة:

"تسريب وثائق مالية تكشف عن تورط أحد وكلاء الورثة في شبكة شركات وهمية"

تقلّبت ملامح نورا بسرعة وهي تقرأ التفاصيل...

اسم راشد ظهر ضمن "مستفيدين محتملين" في تحويلات تمت عبر شركة "الوعد العقاري"، وسط تلميحات مريبة عن "تضارب مصالح" داخل فريق يوسف القانوني.

نورا:

– هذه ليست صدفة...

هم يحاولون يضربونا من داخلنا.

مساعدتها:

– والطريقة التي كتبوا فيها التقرير... توحي إنه تسريب من جهة محايدة، لكن الأسلوب واضح إنه عمل فهد.

نورا تنفست بعمق، ثم قالت:

– راشد كان الحلقة الأضعف... والآن أصبح عبء.

لكن ليس وقته نتصادم داخليًا، لازم نرد قبل ما يسبقونا بالرأي العام.

فتحت جهازها، وبدأت تكتب بيانًا عاجلًا:

"نود التأكيد على أن فريق الدفاع عن الورثة يرحّب بأي تدقيق مالي وشفافية مطلقة، وأن التحقيقات الجارية تحت إشرافنا هي جزء من جهدنا لكشف الحقيقة لا إخفائها. أما الأسماء التي وردت ضمن تسريبات إعلامية مجهولة المصدر، فهي قيد التدقيق الكامل، ولن نتردد في اتخاذ أي إجراء قانوني في حال ثبوت التلاعب أو التحريف."

مساعدتها: أنشره الآن؟

نورا (بحزم):

– لا... بعد ساعة، حتى فهد يعتقد إننا مرتبكين... وبعدها نرد بضربة أقوى.

ثم أضافت:

– وأرسلي ليوسف يجهز نفسه... غداً لدينا ظهور إعلامي.

نريد نوجه السهم صح... حتى يشكّون في مصدر الطعنة.

مساعدتها: وراشد؟

نورا نظرت نحو النافذة، صمتت للحظة، ثم قالت:

–أواجهه... بعد ما نكسب الجولة القادمة.

مساء ساكن في شقة راشد، الستائر مسدله، والضوء الخافت لا يكشف سوى الظلال. هاتفه أمامه، يضيء برسائل متكررة، لكنه لا يفتحها.

جلس راشد على الكرسي الخشبي، أمامه ورقة مطوية بعناية، كأنها عمر كامل كُتب داخل سطرين.

على الطاولة فنجان قهوة بارد، وساعة قديمة تشير إلى التاسعة والنصف.

صوت في داخله، لا يكفّ عن الهمس:

"هم كشفوا اسمي... نورا بكل تأكيد لابد أنها تواجهنِ، ويوسف يمكن يطردني من حياته... هل كنت ورقة أم أداة؟"

رن الهاتف... رسالة جديدة من رقم مجهول:

"تأكد أنك مراقب. ونعرف كل تحرك. الأفضل لك تبقى في مكانك... وتصمت."

قرأها، ثم ابتسم ابتسامة مكسورة.

– الآن اصبحوا يهددوني؟

نهض، فتح خزانة صغيرة، وأخرج منها حقيبة قديمة. بداخلها مستندات، صور، وورقة واحدة كان يخشى فتحها منذ سنوات.

فتحها الآن.

صورة تجمعه مع فهد وشخص ثالث... لم يظهر من قبل.

على ظهر الصورة:

"نحن بدأنا مع بعض ... وننتهي مع بعض."

راشد تمتم:

– ما بدأ قبل موت عبدالله... لم ينتهي.

ثم، رفع هاتفه، واتصل.

صوت خافت على الطرف الآخر:

– من معي؟

قال راشد:

– نحتاج نتكلم... بخصوص ما حدث قبل عشر سنوات.

وقبل ما تتكلمي، خليك عارفة... إذا طحت، الكل راح يطيح معي.

أنهى المكالمة، وأخذ نفسًا عميقًا.

– إذا كانوا ناوين ينهوني... لازم أضرب قبل ما يتم حذفي من الصورة كلها.

المكان: مقهى قديم في أحد الأحياء الهادئة – الطاولات متناثرة، وصوت الموسيقى خافت، يشبه حديثًا بين غرباء. راشد يجلس عند زاوية تطل على الباب. ينظر إلى ساعته، ثم ينهض فجأة.

تدخل امرأة في أواخر الأربعينات، أنيقة، ذات حضور صامت، ملامحها تحمل خليطًا من الحذر والذكاء. إنها: "نجوى" – الاسم الذي لم يُذكر من قبل.

راشد وقف، وقال:

– تأخرتِ.

نجوى جلست بهدوء، نظرت إليه بنظرة ممتلئة بالعتب:

– لم اتوقع يومًا ترجع تتصل ... بعد كل شيء صار.

راشد (بابتسامة مريرة):

– ولا أنا توقعت أحتاجك... بس الظل رجع يطاردني، واللعبة اللي بديناها، فهد قرر يكملها لوحده.

نجوى وضعت حقيبتها على الطاولة، ثم قالت:

– فهد لم يتغيّر... هو نفسه من يوم ما سرق المخطط، وباع الوهم على إنه "مستقبل".

راشد نظر حوله، ثم انحنى قليلًا وقال:

–أوراق توصل لاسمك... داخل ملفات "الوعد العقاري".

إذا طلع اسمك... لن يفرق بينك وبيني وبين فهد عند يوسف ونورا.

نجوى (بهدوء حاد):

– أنا من أعطاكم الفكرة... وأنا من أتى بأول شريك أجنبي. لكن أنتم من طمعوا.

راشد نظر إليها طويلاً، ثم قال:

– أحتاجك تشهدي إن فهد هو من زور الوثائق الأساسية، وإنه استغل الوكالة العامة التي كانت باسم عبدالله.

نجوى ضيّقت عينيها:

– وإذا رفضت؟

راشد (ببرود):

–أفتح ملف "بريد زيورخ". والاسم الوحيد اللي فيه

نجوى فهد.

صمت بينهما... كأن الهواء توقف.

ثم قالت نجوى:

–أفكر... لكن لا تتصل فيني مرة ثانية.

وإذا قررت أساعدك... أوصلك بنفسي.

غادرت، وتركت راشد غارقًا في تاريخه.

في مكتب نورا – الجو متوتر، وأوراق متناثرة على الطاولة، ويوسف يقف أمام السبورة البيضاء، يتأمل خريطة العلاقات والوثائق المالية الموصولة بخيوط حمراء وزرقاء.

دخلت نورا بسرعة، بملف أسود سميك، نظرت إليه وقالت:

– يوسف... يجب أن تسمع كل شيء عندي. يمكن يكون أخطر ملف نلمسه من بداية القضية.

يوسف (بتعب واضح):

–ما عاد فيه شيء يفاجئني يا نورا.

نورا (بجديّة):

– راشد كان على تواصل مع امرأة اسمها "نجوى فهد "... اسمها يظهر في مستندات شركة أجنبية اسمها "بريد زيورخ".

يوسف التفت إليها، عينيه اتسعتا:

– فهد؟ يعني من العائلة؟

نورا أومأت:

– ابنة عمّكم... كانت تعمل في الخارج، وعلاقتها القديمة براشد وفهد لم تكن معروفة.

لكن الآن، اسمها يظهر كمستفيدة غير مباشرة في حسابات تحوّل منها مبالغ ضخمة من الورشة.

يوسف صمت... كأن شيئا سقط في داخله.

– يعني كل هذا... أكبر من مجرد صراع ميراث؟

فيه شبكة كاملة تعمل من خلفنا؟

نورا وضعت الملف على الطاولة، فتحت صفحة واحدة، بها توقيع إلكتروني، ورسالة:

"تأكيد على فتح الحساب لصالح نجوى فهد السالم – بصفة ممثل تجاري عن شركة "الوعد".

يوسف جلس على الكرسي، مد يده، وأخذ الورقة.

– كنت أظن إننا نوصل لنهاية الطريق... لكن أعتقد هذه لا زالت البداية.

نورا (بصوت منخفض):

– إذا نجوى قررت تنقلب عليهم، ممكن تكون مفتاح الانفجار... أو المفتاح الذي سيغلق كل الأبواب علينا.

يوسف رفع عينيه، وقال:

– إذا كانت من العائلة... يجب أن أحدث أمي وهي تعرف أكثر عن العلاقات القديمة.

نورا ابتسمت ابتسامة صغيرة، وقالت:

– دائمًا تعرف من أين تبدأ.

مجلس بسيط في بيت سالمة – ضوء الشمس يتسلل من خلف الستائر، وسكونٌ ثقيل يلفّ المكان. جواهر تجلس بصمت، تقلب بين يديها ألبوم صور قديم، بينما سالمة تراقبها، وعيناها تمتلئان بتساؤلات لا تنطق بها.

يوسف يقف عند الباب، صامتًا. ثم قال بهدوء:

– أمي... خالتي... هناك اسم يجب أن تسمعونه. اسم من زمان، لكن الأن ظهر من جديد.

"نجوى فهد السالم".

جواهر شهقت دون أن تدري، وغطّت فمها.

أما سالمة فمالت برأسها للخلف كأن الذكرى سقطت فوقها فجأة:

– نجوى... يا الله.

يوسف تقدّم وجلس قرب والدته:

– من هي؟ ولماذا الاسم مع راشد وفهد؟

نورا تقول إن اسمها يظهر في معاملات مالية مشبوهة... مرتبطة بأملاك أبوي.

جواهر نظرت إلى سالمة، وكأنها تستأذنها للكلام، ثم قالت:

– نجوى هي بنت عمّكم... لكن كانت تختلف عنّا كلنا. طموحة، ذكية... وأخطر من فهد نفسه لو أرادت.

أضافت بنبرة مشوبة بالمرارة:

– كانت تقضي الصيف عندنا... وكانت تحاول تتقرب أكثر من والدك، لكن أمك رفضت العلاقة من البداية، لأن نجوى من الأشخاص الاستغلاليين.

وبعدها... فجأة اختفت، وسمعنا إنها سافرت أوروبا تدرس إدارة أعمال.

يوسف استمع بانتباه، ثم قال:

– طيب... هل كانت علاقتها بفهد قريبة؟

جواهر (بتنهيدة):

– كانوا متفاهمين... فهد كان دائماً يتستر على تحركاتها، حتى لما أبوه اشتكى منها، فهد دافع عنها كأنها شريكته.

سالمة حدّقت في يوسف وقالت:

– إذا رجعت الآن... واسمها في الأوراق، فمعناه إنها لم تكن غائبة فعلًا. كانت تعمل بصمت، وتنتظر اللحظة المناسبة للظهور.

يوسف قال بصوت منخفض:

– يمكن راشد فتح لها الباب... لكن أنا ناوي أفتحه عليها.

جواهر وضعت يدها على ذراع يوسف وقالت:

– لكن انتبه يا ولدي... نجوى لا تلعب بنفس الطريقة اللي تتوقعها.

هي لا تظهر إلا إذا كانت ضامنة عدم الخسارة... أو ناوية تحرق اللعبة كلها.

المكان: مكتب محاماة راقٍ في أحد الأبراج التجارية – سواد وأناقة وزجاج عاكس. في الداخل، صوت طابعة وأوراق تُسلَّم، وامرأة بكامل ثقتها تتجه نحو قاعة الاجتماعات. إنها: "نجوى فهد السالم".

في يدها حقيبة جلدية صغيرة، وخلفها يسير مساعد شاب بحاسوب محمول. تفتح باب القاعة، فتجد في انتظارها رجلاً في منتصف الخمسينات، ببدلة رمادية ونظرة

مريبة. إنه أحد كبار المحامين المعروفين بإدارة النزاعات المعقدة: "مروان الكاسب".

مروان (واقفًا بابتسامة رسمية):

– آنسة نجوى... أو أقول "شريكة الظل"؟

نجوى جلست بهدوء، وأخرجت من الحقيبة ملفًا صغيرًا، ثم قالت:

– لم أتي للمجاملات، يا أستاذ مروان.

أتيت حتى تبدأ تنفّذ خطة إنقاذ... أو خطة تفجير، على حسب تجاوب الأطراف.

مروان:

– عندك عرض ولا تهديد؟

نجوى بابتسامة واثقة:

– الاثنين... لأن وجودي في الصورة يعني إني أعرف كل التفاصيل التي يخفيها فهد وراشد.

كل تحويل، كل شركة وهمية، كل تزوير.

ولو الأمور انفجرت... اسمي الوحيد ما ارتبط رسميًا بأي مخالفة.

أنا "الشاهدة الذكية".

مروان (متمعّنًا فيها):

– ماذا تريدين تحديداً؟

نجوى وضعت ورقة مطبوعة أمامه، وقالت:

– مذكرة تفاهم. فيها شروط تسوية مشروطة.

أولًا: تنسحب كل أطراف شركة "الوعد" القديمة.

ثانيًا: تُنقل الأصول العقارية إلى اسم طرف ثالث محايد – من اختياري.

وثالثًا: يتم دفع تعويض مالي مجزٍ لي... مقابل صمتي.

مروان قرأ الورقة، ثم قال:

– تتوقّعين فهد يرضخ بهذه البساطة؟

نجوى نهضت، وارتدت نظارتها الشمسية:

– ممكن لن يرضخ... لكن يركع، إذا خرجت أوراق "الوكالة" من خزانتي الخاصة.

ثم مضت، وخلفها طيف خطة مقلقة...

نجوى لا تسعى للعدالة، ولا للانتقام فقط.

هي تسعى لكتابة نهاية تليق بـ "شطرنج العائلة".

مزرعة قديمة على أطراف المدينة – الليل ساكن، والهواء بارد كأنّه يحمل أسرارًا دفينة. فهد يقف قرب السيارة، ينتظر بقلق واضح. أضواء أمامية تظهر من بعيد... إنها سيارة نجوى.

ترجّلت من السيارة بثقة، ترتدي معطفًا داكنًا، وشعرها مربوط للخلف، وخطاها لا تحمل تردّدًا. اقتربت منه، ووقفت أمامه دون كلمات للحظة.

فهد كسر الصمت أولًا:

– توقعت إنك ترجعين... لكن ليس بهذه الطريقة.

نجوى (بابتسامة باهتة):

– دائماً توقّعاتك ناقصة... مثل قراراتك.

فهد زفر ونظر بعيدًا:

– ماذا تريدين؟ مال؟ نفوذ؟ تصفية حساب؟

نجوى اقتربت أكثر، عيناها تلمعان بغضب قديم:

– تريد تعرف ماذا أريد؟

أنا أريد حقي... حقي من اللعبة.

فهد (بصوت غاضب):

– لا تلفين الكلام! أنتِ اللي اختفيتِ، أنتِ من قررتِ تعملين من دون علمنا!

نجوى (تضحك بمرارة):

– من دون علمكم؟

ولا نسيت أول ورقة تزوير وقعتّني عليها باسم الشركة، لما قلت لي "إذا ما وافقتِ، يطير كل شيء"؟

ولا نسيت ليلة ما قلت لي "ننجح مع بعض... أو نموت مع بعض"؟

فهد صمت. وجهه تجمّد، كأن الكلام سحب منه الهواء. نجوى تابعت:

– كنت حبيبتك يا فهد... وكان قلبي أضعف من مخططاتك.

لكن لما قررت تبيعني... بعتك أنا وبضمير مرتاح.

فهد بصوت خافت:

– كنت خائف... كل شيء كان ينهار، وراشد أقنعني إنها الطريقة الوحيدة.

نجوى هزّت رأسها:

– راشد لم يكن يقنعك... كان يديرك.

وانت اخترت تكون "أداة"، وأنا لن أرضى أكون ضحية مرتين.

ثم اقتربت منه خطوة إضافية، وقالت:

– لديك فرصة أخيرة يا فهد... إما تخرج بصمت، أو أفتح الدفاتر القديمة... أمام يوسف، والإعلام، والمحكمة.

وقبل أن تتركه، همست:

– وصدقني... لدي أكثر مما تتخيل.

ثم مشت، تاركةً فهد في العتمة، يواجه أشباحه وحده.

مكتب فهد – بعد منتصف الليل.

الأنوار خافتة، يجلس خلف مكتبه، جسده مسترخٍ ظاهريًا، لكن أصابعه تدقّ الطاولة بإيقاع عصبي. أمامه ورقة بيضاء لم يُكتب عليها شيء، وكأنها تنتظر قرارًا قد يغيّر مسار كل شيء.

يرفع الهاتف، يتصل بشخص مجهول، صوته جاف:

– أريد كل الملفات القديمة... من سنة 2006 إلى 2012.

أي مستند فيه اسم "نجوى السالم" أريده الليلة.

وإذا فيه تسجيلات قديمة من الكاميرات... حتى لو تالفة، نريد نحاول نسترجعها.

يغلق الهاتف، ثم ينهض، يمشي في المكتب جيئة وذهابًا، كمن يواجه طوفانًا داخليًا. يفتح درجًا ويخرج صورة قديمة تجمعه بنجوى في مناسبة عائلية نادرة – ملامحهما يومها مليئة بالأمل.

فهد (يتمتم بمرارة):

– كنتِ كل خططي... واليوم صرتِ كل تهديداتي.

ثم يرنّ هاتفه برسالة قصيرة من رقم مجهول:

"إلى متى تظن أن الظلّ يخفي ملامح من عاشوا فيه؟

اللعبة الآن صارت على المكشوف.

يرمي الهاتف فوق الطاولة بعنف، ويصيح بأعلى صوته:

– انتهى!!

ثم يهدأ، يجلس مجددًا، ويتنفس ببطء، كأنه اتخذ قرارًا خطيرًا.

(بصوت منخفض):

– إذا نجوى رجعت تلعب... لازم نكسر رقعة الشطرنج كلها.

ثم يتجه إلى لوحة مفاتيح مخفية خلف الكتب، ويضغط زرًا سريًا، لتُفتح خزانة حديدية صغيرة، تحتوي على أوراق مالية، عقود غير معلنة، وأسماء...

منها اسم لم يظهر حتى الآن، لكنّه يحمل وزناً كبيرًا.

مكتب نورا – صباح اليوم التالي:

ضوء الشمس يتسلل من بين الستائر النصف مغلقة، يحوم فوق أوراق مبعثرة وملفات مفتوحة، لكن الأجواء مشحونة بالصمت المشوب بالترقب. نورا تجلس

في مكتبها، تدقق في تقرير وصلها منذ الصباح من جهة سرية كانت قد استعانت بها منذ أسابيع لتعقّب مصادر الأموال القديمة في ملف العائلة.

تطرق الباب، تدخل مساعدتها وهي تحمل ظرفًا عاجلًا.

– هذا وصل قبل قليل... من العنوان نفسه من أعطاك أول خيط عن راشد.

نورا تأخذ الظرف، تفتحه بسرعة، تطالع المحتوى... ثم تعبس.

– مستحيل...

المحتوى: ورقة حساب مصرفي دولي، فيه حوالات مالية ضخمة تمّت قبل 12 عامًا، باسم طرف ثالث، لكن توقيع المالك الأساسي يعود لشخص واحد: فهد.

إلى جانب التوقيع، هناك اسم مشترك... الاسم الذي صدمها:

"نجوى فهد السالم – مفوّضة بالإدارة".

نورا (بهمس):

– كانت شريكة حقيقية... لكن شريكة تحت الظل.

تمسك هاتفها وتتصل مباشرة بيوسف:

– يوسف، نحتاج نتقابل فورًا... هناك شيء يجب أن تعرفه عن نجوى.

يوسف (بقلق):

– ماذا هناك؟

نورا:

– أعتقد إننا كنا نحارب من نصف الصورة... والنص الثاني كان مختبئ خلف الستار كل هذه السنين.

قبل أن تُنهي المكالمة، تصلها رسالة إلكترونية جديدة من مصدر مجهول، مرفقة بصورة واضحة لعقد تأسيس شركة قديمة... التوقيع الأخير؟

"ن. ف. السالم"

نورا همست لنفسها:

– نجوى... ماذا تريدين من هذه العودة فعليًا؟

مقهى هادئ في زاوية بعيدة عن الأنظار – مساء رمادي يحمل نذر العواصف.

يوسف كان قد وصل قبل نورا، يجلس على الطاولة الزجاجية القريبة من النافذة، كوب قهوته لم يُمسّ، ووجهه شاحب قليلاً من الترقب. دخلت نورا بخطى سريعة، تمسك بحقيبة يدها بإحكام، وعيناها تبحثان عنه حتى استقرت عليه.

جلست بصمت للحظة، تبادل كلاهما النظرات دون كلمات، ثم أخرجت من حقيبتها الظرف الذي وصلها صباحًا، وضعته أمامه على الطاولة.

نورا:

– يوسف اقرأ بنفسك.

يوسف فتح الظرف، بدأ يقرأ الأوراق بتوتر، وعيناه تتوسعان مع كل سطر. ثم رفع نظره إلى نورا:

يوسف:

– هذا... يعني إنها كانت شريكة؟ مع فهد؟

نورا (بهدوء جاد):

– ليست فقط شريكة... بل كانت مفوّضة بالإدارة، ومسؤولة عن توقيع حوالات بمبالغ ضخمة من حسابات العائلة القديمة.

يوسف أغلق الملف بقوة، ومرر يده على وجهه:

– مستحيل... نجوى؟ أنا كنت أحسب إنها ضحية من ضحايا فهد، وليست جزء من اللعبة!

نورا:

– ممكن كانت ضحية... وممكن كانت تلعب الدورين. لكن الآن، كل شيء تغير.

عودتها لم تكن عاطفية... كانت محسوبة.

يوسف (بحذر):

– والأن ماذا نفعل مع نجوى؟

نورا نظرت له بعينين حادتين:

– يجب أن نعرف نواياها أولاً... إذا كانت ضد فهد، ممكن تكون حليفة مؤقتة.

لكن إذا تريد تأخذ مكانه، فإحنا في خطر أكبر.

يوسف جلس في صمت، ثم قال:

– أحيانًا أشعر إن كل شي حولنا يتكرر... ولكن بأوجه مختلفة.

نورا ابتسمت ابتسامة فيها بعض الحزن:

– ويمكن هذه المرّة، لابد نكسر الدائرة... حتى لو كل شيء حولنا غير ثابت.

يوسف نظر لها طويلاً، وقال:

– مستعدة تمشين معي للنهاية؟

نورا ردت بنبرة هادئة وواثقة:

– أنا وصلت لهذه المرحلة ولن أتراجع... وأنا الأن في معركة هوية... وكرامة، وليست قضية فحسب.

صمت ثقيل مرّ بينهما، لكن خلفه وضوح تام... أن ما ينتظرهما أصعب مما مضى.

مكتب قانوني خاص – فيلا قديمة تابعة لنورا، لا يعرف عنها أحد.

الساعة تشير إلى التاسعة مساءً. على الطاولة أمام يوسف ونورا، تنتشر مجموعة من الوثائق، صور قديمة، نسخ عقود، وحوالات مصرفية. الجو متوتر، لكنه حاسم... الليلة سيُقرران كيف يفتحان ملف "نجوى" بشجاعة وبأقل خسائر ممكنة.

نورا (وهي تشير إلى خريطة الشركات المرتبطة بفهد): – هذي الشركة... "الرواد للتطوير"، تأسست سنة 2007، لكن المسجّل فعليًا وقتها كان فهد واسم ثاني مستعار. لكن إحنا قدرنا نوصل للمستند الأصلي... اللي فيه توقيع نجوى.

يوسف (ينظر بتأمل): – بس الشركة انحلت عام 2011... وين كانت بعدها؟ اختفت؟

نورا: – لا اختفت ولا شيء... أعادت تسجيل نفسها في الخارج، باسم مختلف... والمالكين؟ مؤسسات وهمية تابعة لبنوك ظل. وهذا يعني: نجوى كانت تبني نفوذها بصمت من بعيد.

يوسف (بحدة): – إذا كذا... نحتاج نواجها بذكاء. ما نقدر نفضحها إعلاميًا، ليس قبل أن نتأكد من كل الروابط.

نورا: – وأنا موافقة. لذلك خطوتنا الأولى: دعوة رسمية عن طريق وسيط محايد.

يوسف: – يعني نطلب منها لقاء؟

نورا: – نطلب... ونراقب كيف ترد. هل تتجاوب؟ تتجاهل؟ تتحدى؟ رد فعلها هو يقول لنا كل شيء.

يوسف بإيماءة موافقة، ثم يفتح هاتفه ويتصل بشخص ما:

– السلام عليكم، معك يوسف بن عبدالله... أحتاج مساعدتك في توصيل رسالة شخصية للسيدة نجوى السالم. نعم... أمر عاجل جدًا. وودي تكون الرسالة بصيغة مهذبة، لكن واضحة.

نص الرسالة:

"السيدة نجوى، نرغب بلقائك وجهًا لوجه، في وقت ومكان يناسبك. نعتقد أن هناك ماضي لم يُفهم... ومستقبل قد يُخطئ طريقه. إن كنتِ مستعدة، فنحن بانتظار ردك."

يوسف أغلق المكالمة وقال: – الان ننتظر.

نورا: – لا... الان نستعد. لأن الرد، أياً كان، لن يكون عادي.

في تلك اللحظة، رنّ هاتف نورا.

اسم المتصل: نجوى فهد السالم.

نظرت إلى يوسف ثم ردّت:

"ألو؟"

جاء الصوت الآخر هادئًا، لكن يحمل نبرة تحذير:

"في أوراق ما أرسلتها لك، لأن فيها أشياء ممكن تغيّر مصير ناس كثير... وخصوصًا يوسف. تقدرون تتحملون التوابع؟

نورا نظرت ليوسف، ثم قالت:

"قولي ما لديك نجوى."

نجوى بصوت أخفض:

"البيت القديم... لم يكن بيت عبدالله في الأساس. كان ملك شخص ثاني، وصار باسم عبدالله بعد صفقة مع راشد... صفقة فيها دم."

الصمت ضرب المكان. يوسف اقترب ببطء، وهمس:

"قولي لها إني أريدها هنا في المكتب... اليوم."

لكن الخط انقطع.

لم تمضِ ساعة حتى كانت نجوى جالسة في مواجهة نورا ويوسف، الذي جلس صامتًا ينظر إليها بحدة لا تخلو من جراح الماضي.

نجوى ارتدت عباءتها الداكنة بعناية، ووضعت نظارتها الشمسية على الطاولة كأنها تخلع قناعًا لا تحتاجه الآن. كانت هادئة... أكثر مما توقّع الجميع.

نورا بصوت مباشر:

"قولي كل شي، نجوى. ما عاد فيه وقت للمراوغة."

نجوى ابتسمت بسخرية خفيفة:

"أنا هنا لست لطلب المغفرة من أحد ولا خوف... أنا هنا من أجل قول الحقيقة قبل لا تحرقني وتحرّقكم."

يوسف نظر إليها نظرة طويلة، ثم قال:

"لماذا الآن؟ ولماذا كل هذه السنين ساكتة، وفجأة تريدي تصبحين بطلة؟"

نجوى أبعدت شعرها عن وجهها، وقالت ببطء:

"لأني كنت جزء من اللعبة... لكن لم أكن القائد. راشد هو الرأس، فهد الذراع، وأنا كنت الإصبع اللي يوقّع. وكلنا نعرف، الإصبع يُكسر أول واحد إذا صارت النار قريبة."

نورا فتحت دفتر ملاحظاتها:

"أنتِ قلتِ إن البيت القديم لم يكن ملك عبدالله... اشرحي."

تنهدت نجوى، وقالت:

"قبل ٣٠ سنة، كان البيت ملك رجل أعمال اسمه 'سالم بدر العاصي خصم تجاري قديم لراشد. راشد رتّب صفقة استحواذ تحت الطاولة، وسجّل البيت باسم والدكم مقابل سكوت عبدالله عن مستندات تورّط فهد في مخالفات بناء.

وعبدالله قَبِل بهذا الشيء، لأنه كان يريد الأمان لعائلته.

يوسف (بغضب مكتوم):

"يعني أبوي تواطأ؟"

نجوى نظرت إليه بثبات:

"أبوك لم يكن ملاك، يوسف... لكن كان يحاول يحميكم. دفع ثمن صمته غالي. ومن يومها، راشد صار يتحكّم بكل شيء... حتى فهد، ما هو إلا ظلّه."

نورا سألت بسرعة:

"وعقود المزرعة؟ الورشة؟ كلها واجهة للمال؟"

نجوى أومأت:

"كلها. حتى التوسعة الاخيرة، كانت بفلوس جاءت من حساب مشترك في دبي، تدفّق من شركات راشد. بس لما عبدالله مات، الورق تفرّق... فهد خبّا قسم، وأنا عندي قسم، وراشد مسح الباقي."

سكتت للحظة، ثم نظرت لنورا:

"أنا معي ملفات كانت في خزنة قديمة. فيها عقد التنازل عن البيت، حوالات مالية، ومراسلات بريدية بين راشد وفهد... إذا طاحت في يد النيابة، تنتهي اللعبة."

يوسف سألها:

"وما هو مقابل كل هذا تريدي؟"

نجوى صمتت، ثم قالت بهدوء:

"حماية. لم أعد أتحمّل أكون تحت ظل راشد. إذا انكشفت الشبكة، أنا بطلب صفقة من النيابة... لكن أريد ضمانة إن اسمي لن يُستخدم ككبش فداء."

نورا نظرت إلى يوسف، ثم قالت:

"الموضوع الأن جنائي. يجب أن نتحرّك قبل الجلسة القادمة. إذا وصلنا الملفات للنائب العام، نقدر نجمّد الحكم مؤقتًا... نطلب فتح قضية تلاعب عقاري وفساد مالي."

يوسف قال:

"والبيت؟"

نجوى أخرجت من حقيبتها ورقة قديمة، أكلتها الرطوبة:

"هذا العقد... الأصل. مختوم باسم سالم بدر العاصي، وتوقيع عبدالله بعد التنازل. البيت فعليًا ليس داخل الميراث."

في اليوم التالي الساعة الثامنة صباحًا. كانت الشمس بالكاد قد ظهرت، والمدينة لم تستيقظ بعد تمامًا. لكن في بهو النيابة العامة، كان كل شيء ينبض بالحركة... ومحامي القضايا الكبرى مروان الكاسب ينتظرهم عند المدخل.

مروان، بنبرة حازمة وهو يسلم على نورا:

"الملفات التي بحوزة نجوى كافية لفتح تحقيق موسع... لكن لو طلع فيها تزوير أو تلاعب، ممكن ينقلب السحر على الساحر"

نجوى، بثبات لم يعهده فيها أحد:

"الورق أصلي. ومخزّن في خزنة شخصية باسمي من أيام التصفية الأولى لشركة راشد. كل شيء مؤرشف."

يوسف كان ينظر حوله، كأن المكان يذكّره بطفولته المكسورة التي ضاعت في أروقة القانون.

دخلوا إلى الطابق الثالث، حيث مكتب وكيل النيابة المختص بالجرائم الاقتصادية. جلسوا أمامه، ومعهم ملف ثقيل، يحمل ثقل الحقيقة.

الوكيل، وهو يقلّب في الأوراق:

"عقد نقل ملكية البيت؟ حوالات دولية باسم شركات مموّهة؟ وايميلات فيها أوامر مباشرة من راشد؟"

مروان:

"وكلها موثّقة، ومعزّزة بتقارير مصرفية ومراسلات داخلية من سيرفرات الشركات."

الوكيل رفع حاجبه:

"هذا ليس فقط طعن في الورثة، هذا تلاعب مالي منظم... وغسيل أموال محتمل."

ثم وجّه حديثه ليوسف:

"لو ثبتت هذه الأدلة، نقدر نطلب من المحكمة تجميد تنفيذ الحكم لحين إعادة تقييم الورثة. ونفتح قضية جنائية ضد راشد وفهد."

يوسف، بنبرة ممتزجة بالغضب والانكسار:

"أنا لا أريد أذّيتهم... لكن لن أسمح لاسم أبوي يُستخدم كواجهة لفسادهم."

نورا أضافت:

"والأهم... نكشف الحقيقة كاملة.

الوكيل نهض من مكتبه، واتجه إلى الهاتف الداخلي:

"اطلبوا لي لجنة الفحص الفني، وأخبروا أمن المعلومات يراجع السيرفرات المذكورة في الملف. وفعّلوا أمر استدعاء عاجل لراشد وفهد السالم... للتحقيق الفوري."

التفت إليهم وقال:

"بدأنا. لكن انتبهوا... هؤلاء أشخاص لن يسكتوا بسهولة."

في تلك اللحظة، هاتف نورا اهتزّ. كانت رسالة قصيرة:

من مجهول: "خطوة واحده خطأ... وبيتكم يصير رماد مثل ملف النماصي."

مرّت ساعات مشحونة داخل أروقة النيابة، حيث عكفت لجنة الفحص الفني على مراجعة السيرفرات التي قدمتها نورا ونجوى، بينما فريق آخر بدأ بتمشيط الحوالات البنكية المرتبطة بأسماء شركات راشد وفهد.

عند المساء، دخل المحقق إلى غرفة الاجتماع الصغيرة التي ينتظر فيها يوسف، نورا، نجوى، ومروان.

المحقق، بنبرة صارمة:

"أرسلنا اليوم ثلاث أوامر توقيف مؤقت، واحدة لراشد، والثانية لفهد، والثالثة لشخص ثالث ظهر فجأة في المعاملات... اسمه: سامي العدوان."

نورا، باستغراب:

"سامي؟ هذا كان شريك راشد في إحدى الشركات المهملة اللي طلعت فجأة على الورق."

نجوى، وقد شحب وجهها:

"لا... سامي ليس شريك فقط، هذا كان واجهة لإخفاء حوالات راشد خارج البلد."

المحقق، وهو يفتح شاشة العرض أمامهم:

"في إحدى الحوالات، اكتشفنا نقل مبلغ مليوني دولار باسم شركة وهمية مسجلة في قبرص، والمستفيد الأخير: سامي العدوان. بعد تتبع بسيط، ظهر ارتباط مباشر بفهد السالم عبر رسائل بريد إلكتروني تطلب منه إخفاء المصدر."

يوسف، بصوت منخفض ومندهش:

"أبوي ما كان يعرف شيء عن كل هذا... صح؟"

مروان، بهدوء:

"لا يوجد شيء يثبت تورّطه. كل المعاملات بدأت بعد مرضه، وتحديدًا قبل وفاته بسنة. واضح إن راشد كان يخطط من وقت طويل."

المحقق أضاف:

"وفي تطوّر آخر، نجحنا نفكّ تشفير جزء من المراسلات. فيها تهديدات ضمنية لفهد من شخص مجهول يطالبه بالصمت، ويذكر فيها اسم (الورشة) كأنها مركز تمويل خفي."

نورا، بحدة:

"يعني هم ما كانوا يسرقون الورثة فقط... كانوا يستخدمون الورشة كغسيل أموال؟"

المحقق، وهو يُغلق الملف:

"الأمور تشير إلى شبكة تبييض أموال أكبر من الورشة والمزرعة... إحنا الآن بصدد تحويل الملف لهيئة مكافحة الفساد، وطلب تجميد أملاك راشد وفهد لحين انتهاء التحقيق."

وفي تلك اللحظة... دخل أحد الضبّاط مسرعًا وهو يحمل مظروفًا عاجلًا، سلّمه للمحقق، ثم همس له بكلمات قليلة.

فتح المحقق المظروف، وعيناه تتّسعان مع كل ورقة يقلبها.

المحقق، بصوت مشدود:

"ظهر شيء جديد... تسجيل صوتي. من مصدر مجهول، يفضح صفقة بين راشد وأحد موظفي المحكمة، تم فيها التلاعب بتقرير خبير العقارات في قضية يوسف."

سادت لحظة صمت ثقيلة... ثم التفت إلى يوسف وقال:

"واضح إن قضيتك أبعد من ورثة... اصبحت قضية رأي عام."

_كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً. الأضواء الخارجية لشقة راشد مضاءة بالكامل، كأنه يتوقع زائرًا غير مرحّب به. يجلس في الصالة، بيده كأس شراب فاخر، وعيناه تتابع نشرات الأخبار التي بدأت تلمّح لفضيحة مالية كبرى متورطة فيها "شخصية بارزة في أحد الملفات العقارية".

رنّ الهاتف الأرضي.

رفع السماعة، جاءه صوت متوتر من حارس البناية

"أستاذ راشد... الشرطة عند البوابة، ولديهم أمر تفتيش."

تجمّد راشد لحظة، ثم نهض بهدوء مصطنع، وضع كأسه على الطاولة، وهمّ بالخروج.

ولكن قبل أن يصل الى الباب سمع طرق قوي على الباب.

صوت الضابط:

"راشد بن ناصر ... معك قوة تنفيذية من النيابة العامة. نطلب تعاونك لتسليم نفسك فورًا."

فتح راشد الباب بنفسه، وكان واقفًا على عتبة الباب، وتبدو عليه علامات التعب والارتباك رغم تماسك ملامحه.

راشد، بصوتٍ واهن:

"أكيد هناك لبس في الموضوع. لا داعي لهذه الدراما."

الضابط، وهو يقدّم له الورقة:

"هذا أمر قبض وتفتيش. التهم المبدئية: تلاعب مالي، تبييض أموال، وتزوير مستندات رسمية."

بدأ رجال الشرطة يدخلون المنزل، أحدهم يتجه لجهاز الحاسوب الرئيسي، وآخر يتوجه لخزانة مكتبه.

الضابط الآخر، بهدوء قائلاً:

"سيتم اقتيادك الآن للتحقيق... لديك الحق تتواصل مع محاميك."

راشد أخرج هاتفه ليتصل، لكن الضابط أمسكه بلطف وقال:

"الاتصال لاحقًا... الآن، تفضل معنا."

ووسط دهشة الناس في البناية، اقتيد راشد دون صراخ، دون مقاومة... لكن بعينين زائغتين، تتقلب فيهما احتمالات النهاية.

وفي الخلفية... وقفت سيارة صغيرة على بعد أمتار، داخلها يوسف يراقب المشهد بصمت، يتنفس بعمق، وعيناه ممتلئتان بحقيقة مرّة:

"العدالة ليست انتقامًا... لكنها الطريق الوحيد نحو السلام."

داخل مركز التحقيق... حيث تتكشّف خيوط اللعبة، ويبدأ راشد يواجه ثقل ما اقترفه:

غرفة التحقيق – الساعة 10:35 مساءً

الإضاءة بيضاء باردة، الغرفة معزولة عن الضجيج، بداخلها طاولة معدنية وكرسيان متقابلان. يجلس راشد مكبّل اليدين، مظهره مرتب لكن وجهه يشي بالسهر والإنهاك. أمامه المحقّق سامي، رجل هادئ بملامح صارمة وملف سميك أمامه.

مروان (بصوت ثابت وهو يفتح الملف):

"... قبل لا نبدأ، تأكدت النيابة من اطلاعك على حقوقك؟"

راشد (يرد بجفاف):

"أيه نعم... لكن أريد أفهم التهم الحقيقية ."

سامي (يقلب الأوراق):

"دعنا نبدأ من الورشة... نقلت ملكيتها لشركة وهمية سجلت باسم موظف بسيط في شركتك، بعدين أعيد بيعها لشخص ثاني مرتبط بك، بمبلغ أقل من سعرها السوقي بسبعين بالمئة."

راشد (يتنفس بصعوبة):

"صفقة تجارية... لا يوجد بها مخالفة واضحة."

سامي (ينظر في عينيه مباشرة):

"ورقة تحويل المبلغ اللي استخدمته في الصفقة... اتت من حساب الشركة التي كانت تعمل في تبييّض أموال واردة من الخارج.

وحسب إفادة "نجوى هذه الشركة واجهة لسلسلة تحويلات مشبوهة بينك وبين فهد، وسالم، الذي اعترف جزئيًا على دورك."

تسقط ملامح راشد للحظة، يبلع ريقه، يحاول التماسك.

راشد (ببطء):

"نجوى؟ هي من باعتني؟"

سامي (بهدوء):

" ... بل أنقذت نفسها قبلك.

بالمناسبة... توقيعك موجود على ورقة تفويض بتحويل مبالغ من حساب الورشة لحساب خارجي، بدون علم الورثة. وذُكرت بمكالمة مسجلة بينك وبين فهد... نقدر نشغّلها لك إذا تريد."

لحظة صمت. راشد يُخفض رأسه. الضابط يُخرج ملفًا آخر، يُسلّمه له:

سامي:

"هذا ملخص الأدلة حتى الآن... قدّمنا طلب تمديد توقيفك للتحقيقات الإضافية. المحامي يوصل بعد ساعة. وعندك خيار واحد يا راشد:

تتعاون وتخفف عن نفسك...

أو تتحمّل كل شيء، لأن فهد بالفعل بدأ يحمّلك الجزء الأكبر."

يرفع راشد نظره، عيناه تغليان. يهمس:

"لن أكون الضحية الوحيدة."

وبعد أن بدأ الجدار ينهار من حول فهد وفي الساعة 11:20 مساءً كانت شقة فهد تغرق في هدوء ثقيل، الإضاءة خافتة، وتلفاز في الزاوية يعرض أخبارًا متقطعة. فهد يجلس يرتدي ثوبًا منزليًا، وبين يديه جواله يهتز دون توقف.

تتوالى الرسائل:

"راشد تم القبض عليه رسميًا."

"التحقيقات تأكدت من تزوير الأوراق. المحامي انسحب."

"نجوى تعاونت معهم واعترفت بكل شيء."

فهد يُحدق في الشاشة، يداه ترتجفان دون أن ينتبه، ينقر بأصابعه على الطاولة بعصبية، يهمهم:

"الموضوع ينهار بسرعة... مستحيل نجوى تسوّيها..."

ثم يدخل مساعده القديم "وليد" بسرعة، دون استئذان، وجهه متوتر:

وليد:

" فهد أبلغوني إن هناك أمر توقيف صادر بحقك بعد شهادة راشد! يقولون اعترف إنك من دفعت له يصفي الورشة."

فهد (بغضب مكتوم):

"يسويها من أول لحظة وهو جبان.

وإنت؟ كيف تدخل عليّ كذا؟"

وليد (بصوت خافت):

"كنت وفيّ لك... لكن الوضع الآن خطير.

أنا طالع قبل لا أتورط أكثر... الله يستر عليك."

يخرج وليد تاركًا الباب مواربًا.

فهد يتنفس بصعوبة، يسحب ملفًا من الدرج ويحرق ورقة بداخله، ثم يسحب هاتفًا سريًا من درج مخفي، يتصل.

"نفّذ الخطة الثانية... فورًا.

ثم، قبل أن ينهي المكالمة... يدق الجرس الخارجي بعنف.

كاميرات المراقبة تعرض صورة واضحة:

رجال أمن، وضابط التحقيق سامي واقف عند الباب.

يهمس فهد لنفسه:

"خلصت اللعبة...؟"

يُطفئ الأنوار، لكن صوت مكبر من الخارج يخترق السكون:

"فهد عبدالله... افتح الباب. لدينا أمر قبض، ورفضك يُعد مقاومة رسمية!"

سامي (من مكبر الصوت):

"انتهى وقت الهرب، فهد. افتح الباب بهدوء، ولا تصعّب الأمور أكثر."

ينظر فهد حوله... يداه ترتجف، أنفاسه متقطعة... وأخيرًا يفتح الباب يرفع يديه للأعلى، يستسلم.

_غرفة الزيارة في مركز التوقيف – بعد القبض على فهد بساعات قليلة

الجو داخل الغرفة رمادي، صمت كثيف يُخيّم، يُسمع صوت ساعة الحائط فقط.

راشد يجلس خلف الحاجز الزجاجي، وجهه مرهق، شاحب، عيناه مليئتان بتعب الاعتراف، وكأنه لأول مرة يرى الأمور بوضوح.

فهد يقف متوتراً بجانبه، لم يجلس، يتحرك بخطوات قصيرة لا تعرف اتجاهًا.

سالمة، تدخل بخطى بطيئة، يرافقها الحزن والخذلان، ترتدي عباءتها السوداء، وعلى وجهها مزيج من قوة الأمومة وكسرة القلب.

تجلس بهدوء، تضع حقيبتها جانبًا، تنظر إليهما... بصمت طويل.

ثم تقول بهدوء متماسك، فيه وجع سنين:

" يوسف، كان أصدق منك بكثير يا فهد

أخذ حقه بأدبه منكم.

فهد (ينكس رأسه، بصوت خافت):

"كنت أظن إني أذكى... كنت أحسب إن الحق فقط شطارة.

لم أتوقع أن كل ما بنيته، ينهار بلحظة."

سالمة (تتنهد، ثم تنظر إليه بحزم):

"أنا لم أربيكم حتى تتناحرون على بيت وطين.

أبوكم... الله يرحمه، أخطأ في حق يوسف، وأنتم أكملتم الخطأ."

يصمت الجميع...

ثم تهمس:

"تعرف لماذا قلبي انكسر؟

لأنك خذلت أخوك، وخذلتني."

فهد (يرفع عينيه ببطء، ونبرة فيها انكسار حقيقي):

"ما تتخيلين يا أمي... كم ندمت.

كل شيء صار بسرعة الألم."

سالمة (تنهض، بصوت منخفض):

"ربي يغفر لك...

تأخذ حقيبتها، وتهمّ بالخروج، تتوقف عند الباب، تقول دون أن تلتفت:

يوسف ربح نفسه قبل ما يربح القضية.

ثم تخرج... وفهد ينهار ببكاء صامت.

مساءً داخل الورشة – يوسف يعمل بصمت على لوحة جديدة، الضوء خافت، والموسيقى الكلاسيكية تعزف نغمات حزينة الفرشاة تتحرك بتردد في يده، عينيه زائغتان، ليس في اللوحة بل في ماضيه... فجأة، يُفتح الباب ببطء.

تدخل والدته بهدوء الأم التي لا تحتاج إذنًا لدخول قلب ابنها.

يوسف يلتفت، ينظر إليها، كأنه كان ينتظرها دون أن يعلم.

(تقترب منه، تضع يدها على كتفه):

كل شيء انتهى يا يوسف...

يوسف (يحاول التماسك، يضع الفرشاة، ثم ينظر إليها مباشرة):

"فهد... راشد...؟"

سالمة:

"فهد وراشد في السجن.

فهد جلس مثل الطفل، يطلب السماح.

يوسف (يخفض رأسه، يهمس):

"ليس من السهل أن أغفر لفهد."

(تجلس أمامه، تمسك يده):

لا أطلب منك أن تغفر له بهذه السرعة...

لكن لا أريد الكره يكبر بداخلك

يوسف (يغمض عينيه):

"كنت أتمنى أبي يراني هكذا...

ليس لأنّي ربحت قضية، بل لأني وقفت."

سالمة (تبتسم ابتسامة حزينة):

"أبوك لو كان موجود... يمكن كان يظل أعمى.

لكن أنا شفتك من أول يوم، اليوم اللي كنت تصبغ الحيطان بلون واحد... وتقول لي: هنا بيكون الضوء."

يوسف (يضحك بخفة، ثم تدمع عينيه):

"كنت أريد بيت يحس بالضوء... وليس بالميراث."

حيث تتقاطع مشاعر أفراد العائلة والاعلام والمجتمع في مشهد مزدحم بالتحليلات والانعكاسات النفسية والاجتماعية صباح يوم النطق بالحكم – أمام المحكمة الكبرى – حشود إعلامية، كاميرات، وصحفيون يتدافعون خلف الحواجز

المذيعة ترتدي ملابس رسمية، تنظر إلى الكاميرا وتبدأ البث المباشر:

المذيعة:

"نحن الآن أمام المحكمة الكبرى، حيث أصدرت الدائرة القضائية حكمها النهائي في قضية النزاع العقاري المعروفة إعلامياً بـ "قضية ورشة عبدالله السالم"، والتي أثارت جدلاً واسعاً في الشارع المحلي والعربي، نظراً لتداخلاتها العائلية والمالية."

داخل قاعة المحكمة .

القاضي:

"بعد النظر في كافة الأدلة، والاعترافات، والتقارير المالية، تقرّر المحكمة ما يلي:

أولاً: تثبيت حق المدعي يوسف عبدالله السالم في ملكية الورشة والمزرعة كاملة.

ثانياً: إلزام المدعى عليهم فهد عبدالله السالم وراشد بن فهد بإعادة المبالغ المختلسة، وتحويل الملف للنيابة العامة لاستكمال التحقيقات في قضايا التزوير والتلاعب المالي.

ثالثاً: تجميد حسابات الشركات المتورطة، ومنع المتهمين من السفر حتى إشعار آخر.

رابعاً: حفظ حق الأطراف الأخرى في الترافع المدني حال ظهور مستندات جديدة."

المشهد في خارج المحكمة يوسف يخرج محاطًا بحشد من الصحفيين

أحد الصحفيين:

"أستاذ يوسف، هل تعتبر الحكم هذا نهاية الصراع؟"

يوسف (بهدوء وثقة):

"لم يكن هناك كان صراع... بل كان تصحيح لمسار... وكل ما نريده الان هو أن نعيش بسلام، ونبني شيء يليق باسم والدي... الله يرحمه."

بث مباشر على القنوات الإخبارية – صور يوسف وهو يحتضن والدته سالمة بعد الحكم تنتشر بسرعة، تتداولها مواقع التواصل تحت وسم #انتصار_يوسف

وفي تويتر غرد أحدهم:

يوسف عبدالله لم يربح القضية فقط، بل ربح نفسه أيضاً.

في تلك اللحظة كان الضوء يتسلل بخفة عبر نافذة الورشة، يلامس وجه يوسف المرهق والممتن. دخلت سالمة بهدوء، تمشي على أطراف الذكرى، تقف خلفه، تضع يدها على رأسه برفق وتهمس:

"هذا بيتك... وهذه ورشتك... لكن قلبك هو كنزك يا يوسف."

تقف خلفه، تمرّر يدها على شعره، تقول بهدوء:

"أفتح صفحة جديدة، ودعهم يواجهون ندمهم من بعيد... وأنت أكمل رسم الحياة التي حلمت بيها."

نهض يوسف بهدوء، أقترب من لوحته، تأملها قليلاً، ثم أمسك الفرشاة بثبات مختلف، هذه المره لم يكن يرسم فحسب بل كان يعيد بناء نفسه.

بضربات دقيقة بدأت ملامح وجه تتشكل على القماش، وجه يحمل شيئاً منه، وشيئاً من أبيه.

وقفت سالمة تراقبه بصمت، دمعة خفيفة لم تبح بها، وابتسامة فيها كل الرضا... ثم استدارت وغادرت الورشة بهدوء الأم التي اطمأن قلبها.

وفي مشهد مشحون بالأسى والصدق والندم — لقاء طال انتظاره بين يوسف وفهد، في لحظة تتكشف فيها سنين من الخيانة، والخوف، والأخوّة المكسورة.

_ مركز التحقيق – غرفة مقابلات خاصة – الساعة 6:45 مساءً

الجو مشحون بالصمت. طاولة معدنية تفصل بين يوسف وفهد. الحارس يغلق الباب من الخلف، تاركًا مساحة ثقيلة بينهما.

فهد يبدو هزيلًا، وجهه شاحب، لحيته خفيفة، وملامحه مرهقة.

يوسف يجلس بهدوء، ناظرًا إليه بثبات، لكن عينيه تمتلئان بأسئلة لا حصر لها.

يوسف (بصوت خافت):

"فهد لماذا كل هذا؟"

فهد (ينظر إلى الطاولة، يتردد):

"كنت أفكر... لو الزمن يرجع... يمكن كنت أقدر أصير إنسان أفضل مما أنا عليه الان."

(يرفع نظره)

"لكن للأسف، بعض الأخطاء لا رجعه لها."

يوسف (بحدة مكبوتة):

"أخطاء؟ او خيانات؟ أنت أخوي... كنت تحضر معنا العزاء، وتضحك بوجه أمي، وتغرس سكينك في ظهري من خلف الستار."

فهد (يخفض رأسه):

"كلنا طمعنا... لكن أنا كنت أكذب على نفسي إنّي أستحق أكثر. كنت أبرر لنفسي... وأصدّق أنه لا حق لك، لكن الحقيقة؟ كنت أخاف منك... لأنك كنت الوحيد الذي يمثّل شي حقيقي من أبي."

يوسف (ينظر إليه طويلًا):

"وأبي لو كان حياً لن يرضى بكل ما حدث في العائلة؟"

فهد (بعينين دامعتين):

كنت غبي... لم أرى أبي فيك إلا بعد ما خسرنا كل شيء. يمكن تكون لم تغفر لي، وأنا لا ألومك... لكن اليوم أقولك الحقيقة كلها...

يوسف وبنفس عميق:

"العدالة أخذت مجراها... لكن الغفران؟ شيء آخر."

(لحظة صمت)

يوسف يكمل:

"لا يمكن أسامحك يا فهد... اليوم أنا معك لأن الإنسان الذي بداخلي، لا يريد أن يكرر خطأ أبي... تجاهل، وسكوت، وتغطية على الأخطاء... لا أستطيع السكوت."

فهد ينظر إليه برجاء:

" لو تقدر... بلغ أمي إن ولدها يعتذر... لأول مرة من قلبه."

يوسف (ينهض بهدوء، واقفًا):

"يمكن أقول لها... إذا بيوم شفتك تتغيّر، تتغير بالفعل. "ثم يغادر، وفهد يبقى وحده، يضم يديه معًا كأنهما مكبلتين بندمٍ لا يُكفّر عنه.

في صباح يوم الجمعة – الساعة 10:00 صباحًا شمس ناعمة تدخل من النوافذ العريضة، تلامس الخشب المصقول، وألوان اللوحات المعلقة على الجدران. رائحة القهوة تملأ المكان، ممزوجة بعبق الورنيش والطلاء.

يوسف واقف عند المدخل، ينظر إلى المكان كمن يرى وجه والده القديم، لكن هذه المرة دون مرارة... فقط حنين، وشيء من الفخر.

ليان تدخل وهي تمسك دفترًا للرسم، ترتدي مريولًا مطرّزًا بعبارات صغيرة: "لنخلق الجمال من الرماد."

ليان (مبتسمة):

"عرفت إنك بتكون هنا.

يوسف (نصف ابتسامة):

"الورشة تحاورني وكأنها الحياة."

ليان (تنظر حولها):

"كل شي تغيّر... حتى الطاولة التي كانت مكسورة، رجعت أقوى."

يوسف (بصوت أقرب للهمس):

"مثلنا تماماً."

يدخل عادل، أحد طلاب الفن الجدد، شاب خجول يحمل أدوات نحت.

عادل:

"أستاذ يوسف... من أين أبدأ؟"

يوسف (يشير إلى الزاوية المضيئة):

"ابدأ من حيث تشعر... الفن لا نقطة بداية له، فقط ابدأ من أول احساس."

يدخل أطفال صغار، بصحبة سالمة، التي باتت تقيم ورشًا فنية للأطفال كل جمعة. تمسك بيد طفلة صغيرة ترسم شمسًا كبيرة.

نهلة (الطفلة):

"عم يوسف! شوف رسمتي!"

يوسف (يركع لمستواها):

"هذه أحلى شمس شفتها من زمان... حتى الشمس اللي في الخارج غيرانة."

سالمة (تبتسم وهي تراقب المشهد):

"الحياة أقوى من الفقد، يا ولدي... وأنت اليوم، ضوءها."

يوسف ينظر إليها، يبتسم، ثم يرفع نظره للوحة كبيرة في منتصف الورشة: صورة مرسومة بالألوان المائية لوجه والده، يضحك، وخلفه شجرة زيتون عظيمة.

يوسف (بصوت داخلي):

"من بين الركام... زرعنا فن، وصدق، وبداية لا كذب فيها."

الورشة تعج بأصوات الحياة، لا الأنين... وورق الشجر الذي كان يسقط في الماضي، اليوم يُزهر من جديد.

مساء السبت – الساعة 9:00 مساءً في غرفة يوسف

الإضاءة خافتة. يجلس يوسف أمام مكتبه الخشبي القديم، فوقه كومة من الرسائل والدفاتر، ومجلة فنية تحمل صورته في غلافها بعنوان:

"الفنّ كحقيقة: يوسف يتصدر المشهد"

ينظر إليها لوهلة... ثم يفتح درج المكتب، يسحب منه ظرفًا كبيرًا، كتب عليه بخط يده: "مشروع البداية".

يُسمع صوت سالمة من الخارج:

"يوسف... ليان على الخط. تقول ترجع تكلمها بعد شوي؟"

يوسف (بهدوء):

"قولي لها في وقت لاحق أكلمها."

ينهض، يفتح الظرف، ويُخرج منه ملفًا يحمل عنوانًا غريبًا:

"بيت النور – أكاديمية الفنون والعافية النفسية"

ينظر إليه طويلاً... ثم يبدأ الحديث بصوت داخلي:

يوسف (سرد داخلي):

"ليس فقط الورشة التي تستحق تعود للحياة... هناك أناس كثيرين، مثل يوسف القديم، داخلهم صراخ... لا أحد يسمعه. الفن أنقذني، لكن الأهم... إني أخليه ينقذ غيري."

يفتح اللابتوب، يدخل على البريد الإلكتروني، يبدأ بصياغة رسالة بعنوان:

"طلب دعم لإنشاء مركز فني نفسي – بالشراكة مع وزارة الثقافة."

وفي خانة المستلمين:

أمي

ليان

المحامي مروان الكاسب

الأستاذة نورا

مؤسسة الدعم النفسي المجتمعي

وعدد من الداعمين الذين ساعدوه في قضيته.

يوسف (يكتب):

"أصدقائي،

ما مررنا به ليس مجرد قصة ميراث أو نزاع عائلي، بل كان رحلة شفاء...

واليوم، أعلن عن نيتي إنشاء مركز "بيت النور"، يجمع بين العلاج بالفن، والدعم النفسي، والتعليم، ليكون حضنًا لكل من تهشّم بصمت.

أحتاج دعمكم، أفكاركم، وأحلامكم معي.

يوسف "

يُرسل الرسالة... ثم يقف أمام المرآة، يلمح انعكاس نفسه لأول مرة بدون قلق، بدون قناع.

يوسف (بابتسامة):

"الوقت حان... نكون نحن ولسنا ظل أحد."

صباح الأحد – الساعة 10:00 صباحًا

1. ليان – في مرسمها

تجلس أمام لوحة غير مكتملة. هاتفها يرن، تفتح البريد، تقرأ رسالة يوسف... عيناها تدمع، تضع الفرشاة جانبًا، وتكتب ردًا سريعًا:

"يوسف، حلمنا صار له اسم. أنا معك قلبًا وريشة... بيت النور هو بيتنا."

ثم تقف، تمسح دموعها، وتبدأ ترسم لوحة جديدة... العنوان على الزاوية:

"العبور"

2. سالمة – في المطبخ

تحضّر القهوة، و"التابلت" مفتوح على الرسالة. تقرأها ببطء، تضع يدها على قلبها، وتهمس:

"يا روحي يا يوسف... ربي يوفقك"

3- في مكتبها كانت تقرأ ملفًا قانونيًا، حتى ظهرت إشعارات البريد. تقرأ الرسالة وتبتسم، ثم تكتب على دفترها بخط كبير:

"بيت النور: مشروع يستحق القتال من أجله"

ثم ترد على يوسف:

"أنا معك... وسأقدم كل الدعم القانوني والتنظيمي لإطلاقه. يوسف، بدأت تصنع مجتمعك."

4. مروان الكاسب – في السيارة

واقف في زحمة، يقرأ الرسالة من شاشة الهاتف، يضحك وهو يهز رأسه:

"عرفت إنك غير عادي من أول مرافعة يا يوسف."

يرد عليه برسالة صوتية:

"أنا أرتب لك موعد مع جهة تمويل فني نفسي، مشروعك واعد جداً. وأنا أكون أول داعم."

5- فهد في زنزانته المؤقتة يمرر له السجّان ورقة مطبوعة... كانت نسخة من الرسالة التي أرسلتها ليان له بدافع "أن يعرف من هو يوسف الآن".

يقرأها بصمت... لا ملامح واضحة على وجهه... فقط تنهيدة طويلة، ثم يطأطئ رأسه.

فهد (يتمتم):

"سبقني... وسبقني كثير."

لقطات متتالية لأشخاص مختلفين يقرؤون الرسالة:

شاب صغير يرسم على الجدار ويبتسم.

فتاة تخرج من جلسة علاج نفسي وتحضن أمها.

رسامة تضع الورقة على لوحة إعلانات مكتوب أعلاها:

"هنا يولد الأمل."

شارع قديم في أطراف المدينة – مساء الثلاثاء – الساعة 7:15 مساءً

يوسف يقود سيارته بعد خروجه من لقاء تمهيدي لإطلاق "بيت النور". مزاجه هادئ، حتى تظهر رسالة على هاتفه من رقم مجهول:

"تظن أنك بدأت من جديد؟ بعض الأبواب لا تُغلق يا يوسف، فقط تنتظر من يطرقها."

يتوقف عند الإشارة... ينظر حوله... فجأة تلمح عينه وجهًا مألوفًا على الرصيف.

امرأة ترتدي عباءة سوداء، ولكن ملامحها ليست غريبة عليه... إنها "سُهى"، صديقة قديمة من الجامعة، اختفت فجأة منذ سنوات.

يوسف يركن سيارته على عجل، يخرج... يلاحق خطواتها... لكنها تختفي داخل زقاق ضيق خلف مبنى قديم.

يوسف (بصوت خافت): "سُهى؟!"

لا أحد يرد.

يتقدم بحذر، يجد بابًا حديديًا مفتوحًا جزئيًا، يدخل... الظلام والهدوء يسيطران، إلا من ورقة موضوعة على طاولة صدئة، مكتوب فيها:

"ما زال هناك من يدفع ثمن الحقيقة... والقصاص لم يبدأ بعد."

في مساء اليوم التالي – الساعة 9:30 مساءً في منزل العائلة يوسف جالس على طاولة الطعام، الورقة الغامضة ما تزال في جيبه. لم يُخبر ليان. يحاول التركيز في رسم تخطيطي لمعرض جديد، لكن ذهنه مشوش. يتلقى رسالة على بريده الإلكتروني من حساب قديم باسم "soha93"، العنوان:

"ما زلت تتذكر؟"

يفتح الرسالة، فتنبثق صورة قديمة من عام 2014، تجمعه مع سُهى في مرسم الجامعة. يليها نص مختصر:

"حينها اخترت الصمت... الآن جاء وقت المواجهة."

صوت الباب يُطرق. يوسف يتجه ببطء. يفتح... لا أحد. فقط مظروف بنيّ على الأرض.

يفتحه... بداخله صورة لورشة أبيه القديمة، وورقة صغيرة كتب عليها:

"والدك لم يكن كما تظن... اسأل عن المحاضر الذي طُرد في 2015."

خرج يوسف مسرعاً للقاء المحامية نورا

يوسف يجلس أمام نورا، متوترًا.

يوسف:

"في أحد يتلاعب بي، أو يحاول يقول لي شيء لم أعرفه وقتها... سُهى اختفت فجأة، والآن ترجع بهذه الطريقة؟"

نورا (بهدوء وتحفّظ):

"إذا كانت تبحث عن إجابات، يمكن ليست هي الوحيدة اللي تحمل أسرار من الماضي. يوسف... أنت متأكد إنك تعرف كل شي عن والدك؟"

يوسف يطأطئ رأسه... لأول مرة يشعر أن صورته عن والده قد لا تكون مكتملة.

بعد يومين يوسف يتسلل إلى مكتب في الجامعة بمساعدة نورا، يبحث في ملفات الطرد والتأديب.

يجد ملفًا باسم: "الدكتور غسان عبد المرضي – تحقيق داخلي – 2015"

تقرير داخلي يشير إلى علاقة غير واضحة بين الدكتور غسان وطلبة في قسم الفنون، وسُهى ذُكرت بالاسم. آخر سطر في التقرير مشفّر.

يوسف ينظر إلى نورا:

"هناك شيء كان مخفي... وسُهى دفعت ثمنه."

يكتشف يوسف أن والده رغم صورته المثالية، كان قد مارس سلطته ونفوذه للتأثير على مصير الدكتور "غسان عبد المرضي"، في قضية كانت تمس سمعته العائلية، وخصوصًا يوسف.

أرشيف الجامعة – غرفة الوثائق السرية – الليل

يوسف يجلس مع نورا داخل الغرفة، الأوراق مبعثرة، والغبار يعلو الملفات. تخرج نورا ملفًا غير مفهرس مكتوب عليه بخط اليد: "سري – لجنة التحقيق – 2015".

تفتح نورا الملف ببطء. داخل الملف تقرير مكتوب بخط الآلة:

"... بعد شكوى مقدّمة من السيد عبدالله ، والد الطالب يوسف، بشأن ممارسات غير مهنية للدكتور غسان تجاه بعض الطلبة، وعلى خلفية اتهامات بعلاقات غير أخلاقية ضمن بيئة القسم، قررت اللجنة فصله احترازيًا دون إعلان رسمي، حفاظًا على سمعة المؤسسة وطلبتها."

يوسف يُصعق، يقرأ الفقرة مرارًا. يخرج ورقة أخرى مرفقة... شكوى بخط والده.

يوسف (يهمس):

"أبي هو من طرده... كتب بخط اليد... لكن لماذا؟"

نورا (بحذر):

"يمكن ظن إن الدكتور شكّل تهديد عليك... أو على سُهى."

يوسف يتصفح المزيد... يجد ملاحظة جانبية كتبها أحد أعضاء اللجنة:

"يبدو أن السيد عبدالله مارس ضغطًا شخصيًا لسحب اسم الطالبة سُهى من التحقيق... الملف لا يذكر سببًا واضحًا، لكن نفوذ العائلة كان كافيًا لإغلاق الأمر."

يوسف يعود للورشة – مساء

يجلس وحيدًا في ركن هادئ. ينظر إلى صورة قديمة لأبيه.

يوسف (لنفسه):

"كل شي كنت أهرب منه... صار أمامي. وأنا لم أبعد عن الحقيقة... كنت محاط فيها."

عودة "سُهى" لحظة صادمة، محمّلة بالمشاعر والوجع والأسئلة القديمة التي لم تُجب..

الورشة بدأت تعود لهدوئها. يوسف يرتّب لوحات إحدى الزوايا، منهمك في إصلاح إطار مكسور. تدخل فتاة ثلاثينية الملامح، ذات وقفة قوية ونظرات ثابتة. لا يتنبه إليها في البداية.

صوت هادئ خلفه:

"لازلت تميل أكثر للرمادي؟"

يتجمّد يوسف.

يستدير ببطء... يتقاطع نظره مع عينيها.

يوسف (بصوت مبحوح):

"سُهى؟"

سُهى (بابتسامة خفيفة ولكن بلا دفء):

"توقّعت تلاقيني قبل كذا، صح؟"

يتقدّم منها خطوة، يتردّد، كأن بينهما سنوات من الغربة.

يوسف:

"كنت أظنّك اختفيتِ... تمامًا."

سُهى:

"أنا اختفيت فعلاً...ليس جسدياً، لكن كل شيء داخلي انطفئ يوم شفت بعيني كل شيء صار."

يوسف (ينظر للأرض):

"لم أعرف ماذا حدث."

سُهى:

"وأنت لليوم يمكن ما تريد تفهم. سهل إنك تصدّق إن الدكتور كان مخطئ، وسهل إنك تمشي خلف رواية والدك، لأنك كنت تحتاج تصدّقه."

يوسف:

"أبي دفنك حيّة... لم تكن لدي فكرة. كل شيء طلع لي قبل كم يوم."

سُهى (تنظر في عينيه):

"وماذا ستفعل بالحقيقة؟ ترسمها؟ تعلقها لوحة؟ ولا تتركها تنتظر مثلي؟"

يوسف (بصدق مؤلم):

"أريد أسمعك. حتى لو كانت كلامك أقسى من لوحاتي."

سُهى (بنبرة مشروخة):

" حبيت فقط أواجه ظلك، ظل أبوك، ظلّ السكوت اللي عشناه سنين... لكن يمكن، بعد كل هذا، ألاقي يوسف اللي كان يسمعني."

يوسف (بهمس):

"أنا هنا... ومستعد أسمع."

سُهى (بعد صمت):

"أبوي انكسر بعد طرد الدكتور. وأنا صرت مريبة في عيون الناس. واللي وجعني أكثر؟ إنك ما سألت."

يوسف لا يرد. فقط تنزل دمعة واحدة بصمت.

سُهى (تتنهد):

"لكن يمكن هذا الوقت ليس وقت محاسبة... يمكن وقت نجرب نصدق بعض، لو لمرّة."

يوسف (يرفع عينيه):

"هل تسمحين أبدأ من جديد؟"

ينتهي اللقاء بصمت طويل بينهما. نظرات مليئة بالماضي... وباحتمالات المستقبل.

عند الباب – لحظة الوداع

صمت ثقيل يخيّم بعد الحديث. يوسف واقف أمام سُهى، يحاول أن يجد كلمات تُعيد شيئًا من الذي كان. لكنها تسبق خطوته بالكلمات:

سُهى (بهدوء قاتل):

" ليس كل ما انكسر يُرمم بعض الجروح تُخاط، وبعضها تظل مفتوحة حتى تذكّرنا نوقف النزيف من البداية."

يوسف (بصوت خافت):

"لكنّي تغيرت... فهمت الآن."

سُهى (تهز رأسها بأسى):

"أنا لم أتي أسمع إنك تغيّرت. أتيت أودّع. يمكن فيك شيء جديد... بس أنا تغيرت لست نفس سُهى القديمة التي كنت تنتظرها تظل تحبك بعد الصمت."

يوسف (يهمس):

"لو رجع الزمن..."

سُهى (مقاطعَة):

"ما يرجع. والزمن اللي قدّامنا، ما لي فيه مكان معك."

تتجه نحو الباب، تتوقف لحظة، تدير وجهها نصف التفاتة:

سُهى:

"أعمالك صارت صادقة أخيرًا. خلك فيها... يمكن تكون الطريق اللي تنسى فيها مثلي."

ثم تمضي.

يوسف يظل واقفًا، لا يتبعها. يراقب ظلها يغيب في الممر، كأنما يغيب شيء من ذاته معها. يعود ببطء نحو لوحاته... يتأمل واحدة منها كانت تحمل ألوانًا من الماضي، ثم يسحب فرشاة، ويبدأ بطمسها.

صباح جديد في الورشة – يوسف جالس أمام لوحة بيضاء تمامًا، لكنه لا يحمل فرشاة. أمامه ملف مفتوح، يحمل شعار "مبادرة الفن للسلام".

تدخل ليان بهدوء، تحمل كوب قهوة، وتضعه بجانبه.

ليان:

"ملفك معتمد. وافقوا على المشروع بالكامل. ثلاث ورش تنطلق الصيف القادم في الجنوب، واثنتين في المناطق الحدودية."

يوسف يبتسم أخيرًا... ابتسامة مختلفة، فيها امتنان وعمق.

يوسف:

"كنت أظن أن نهاية قصتي مع العائلة، هي نهاية كل شيء. لكن الظاهر كانت بداية. الفن ما عاد عشان أعبّر عن ألمي... صار وسيلة أعالج فيه ألم غيري."

ليان (بفخر):

"وأنت قدها يوسف. المشروع هذا ليس فقط فكرة... هو شفاء جماعي."

يوسف:

"اريد أدرّب شباب فقدوا أهاليهم، أحياء تعرّضت للإقصاء، ناس تشبهني في الانكسار... لكن يقدرون يوقفون."

داخل الورشة – بعد تجديدها، أصبحت مساحة فنية حديثة تحمل اسم: "من رمادنا ننهض". يوسف واقف أمام سبورة يشرح فكرة المعرض القادم. حوله مجموعة متنوعة من الشباب والشابات.

يوسف:

"المعرض القادم بعنوان وجوه خلف الجدران... نريد نعرض تجاربكم الحقيقية، لكن ليس كضحايا، كأبطال قاوموا ونجحوا. كل واحد فيكم له قصة تستحق تُروى."

(الكاميرا تتحرك ببطء لتُظهر الشخصيات الثلاث الجديدة):

1. دانا – 29 سنة، فنانة تشكيلية صماء

صامتة أكثر الوقت، لكنها تعبّر عن أفكارها برسومات قوية، تحمل صرخات صامتة. كانت ضحية تنمّر في المدرسة وفقدت سمعها بعد حادث، لكنها وجدت ملاذها في الفن.

موقفها داخل المبادرة:

تصمم لوحات تعبيرية تجسّد العزلة والأمل. يوسف طلب منها أن تُدرّب مجموعة من الأطفال ذوي الإعاقة على الرسم.

أول جملة كتبتها على السبورة:

"ما قدرت أسمعكم... فتعلمت أصرخ بألواني."

2. لافي – 35 سنة، عامل سابق في ورشة حدادة، خرج من السجن قبل عامين

انطوائي، يحمل ملامح رجل هزمه الماضي لكنه يحاول أن يجد ضوءًا صغيرًا. دخل السجن بسبب سرقة ارتكبها من أجل دفع علاج أمه.

موقفه داخل المبادرة:

يعمل الآن مسؤولًا عن تجهيز المعارض، ويُدرّب الشباب على النحت باستخدام الخردة المعدنية. يوسف وثق فيه يوم قابله في أحد المراكز الاجتماعية.

أول عمل نحته:

مجسم لرجل مكبّل بسلاسل لكن إحدى يديه تتحوّل إلى جناح طائر.

3. نورة – 24 سنة، طالبة إعلام منقطعة

من خلفية محافظة، كانت ضحية ابتزاز إلكتروني دفعها للعزلة وترك الجامعة. دخلت المبادرة عبر دعم من نورا المحامية، التي رشّحتها للعمل في التوثيق والتغطية الإعلامية للمشروع.

موقفها داخل المبادرة:

تصوّر وتوثّق قصص الأعضاء، وبدأت مؤخرًا سلسلة بودكاست بعنوان: "وراء الجدران"، تُجري فيه مقابلات مع المشاركين وتحوّل حكاياتهم إلى رسائل أمل.

في أول تسجيل لها قالت:

"كانوا يقولون عني انكسرت... لكن لم يرى أحد كيف عدت أبني نفسي حجَر ورى حجَر."

يوسف ينظر إليهم جميعًا، وعلى وجهه ملامح فخر ودهشة.

يوسف (بهدوء):

"المبادرة ما هي فكرتي... هي انعكاس لكل واحد فيكم. إحنا كلنا ضحايا سابقين... لكن الآن؟ صانعين أثر."

مساء الخميس – مقر المبادرة "من رمادنا ننهض" يتحوّل إلى معرض فني

الواجهة مضاءة بمصابيح ناعمة، والأصوات تتداخل بين موسيقى هادئة وهمسات الزوّار. البوستر الخارجي يحمل عنوان المعرض:

"وجوه خلف الجدران – قصص لم تُروَ"

يوسف واقف عند المدخل، مرتديًا قميصًا رماديًا بسيطًا ومعطفًا داكنًا. يبتسم للزوار ويشير للضيوف بالدخول. بجانبه ليان، تمسك قائمة بأسماء الحضور.

داخل المعرض:

الجدران مغطاة بلوحات دانا – وجوه باهتة، بعضها يذوب، وبعضها ينبت منه زهور.

زاوية عرض أعمال لافي – مجسّم لرجل ينهض من كتلة حديدية منصهرة، كتب بجانبه: "أنا لستُ مجرد ماضي."

زاوية البودكاست – شاشة كبيرة تعرض مقاطع من تسجيلات نورة، تتحدث فيها فتاة مجهولة:

"لما فقدت صوتي، اكتشفت إني أقدر أصرخ بطريقتي."

الضيوف يتنقلون بين الزوايا، تتفاوت انفعالاتهم: التأمل، الدهشة، البكاء، التصفيق.

في الزاوية الخلفية، يقف الدكتور غسان، ليان تلاحظ وجوده وتقترب من يوسف.

ليان (بهمس):

"تشوف من خلف العمود؟ هذا الدكتور غسان... كنت أسمع عن قضيته زمان."

يوسف يتجمّد لحظة. ينظر باتجاهه ثم يتقدّم نحوه.

يوسف:

"دكتور غسان؟ أنا يوسف عبدالله..."

الدكتور (هادئًا):

"أنا أعرفك. ورأيت ملامحك في لوحاتهم... فيك شيء يشبه صرختهم."

يوسف:

"كنت أجهل ما حدث معك، لو تريد تتكلم فيه... أبوابنا مفتوحة."

الدكتور:

"أنا هنا من أجل أن أفرح من أجلك. يمكن الظلم أخرجني من التعليم... لكن رأيت اليوم معنى التعليم الحقيقي هنا."

وفي نهاية المبادرة يوسف يعتلي منصة صغيرة، ويُلقي كلمة أمام الجمهور.

يوسف:

"لن أقول إننا انتصرنا... لكننا بدأنا نغيّر. هذا المعرض ليس نهاية رحلة، هو بدايتها. كل عمل هنا هو شهادة حية إننا مهما تأذّينا... نقدر نكون أثر، لا ذكرى."

بدأ صوت "من رمادنا ننهض" يتردد خارج جدران الورشة، ويأخذ صداه في المجتمع، سواء بالإعجاب، النقد، أو حتى محاولات التشويه.

صباح اليوم التالي – يوسف يجلس في مكتبه داخل الورشة، شاشة اللابتوب أمامه تعرض عناوين الصحف والمواقع

ليان تدخل تحمل مجموعة جرائد ومجلات.

ليان (بابتسامة حذرة):

"جاهز تقرأ ما كتب؟"

يوسف (ينظر إليها):

"قولي إنهم لم يقولوا علينا فرقة مشاغبين من ضحايا المجتمع؟"

ليان تضحك وتبدأ بقراءة العناوين:

– "من رماد الألم يولد الفن... مبادرة شبابية تهزّ وجدان العاصمة" – صحيفة الوطن

– "وجوه خلف الجدران: حين يتحول السجن إلى معرض مفتوح للحياة" – جريدة الشباب

– "مبادرة يوسف تثير الجدل: فن صادق أم استثمار في الجراح؟" – موقع نقد ثقافي مستقل

– "من هم شباب الورشة؟ ومن يقف خلفهم؟" – مقال رأي في صحيفة إلكترونية

يوسف يقرأ بصمت، يضغط على الماوس بسرعة، يتنقل بين المقالات.

يوسف (بهدوء):

"بعضهم معجب... وبعضهم غير قادر يصدق إننا نعمل بنية حقيقية."

ليان:

"وهذا طبيعي. النجاح يجيب الأسئلة. والصدق يخوف اللي ما يعرفه."

مداخلة من مذيعة عبر شاشة التلفاز داخل الورشة

المذيعة:

"ضيوفنا اليوم من داخل مبادرة 'من رمادنا ننهض'. معنا الناشطة نورة، وحديث خاص عن كيف تحوّل الفن لأداة عدالة واستشفاء..."

يوسف ينظر إلى الشاشة، يرى نورة تتحدث بجرأة، تذكر تفاصيل عن قصص بعض المشاركين، دون فضح خصوصياتهم، وتدافع عن المشروع كمساحة تعبير حرة.

نورة على الشاشة:

"هؤلاء ليسوا ضحايا... هؤلاء روّاد. وكل لوح وكل مجسّم داخل المعرض له قصة، له نَفَس، وله شخص شجاع قرر يكسر الصمت."

مكالمة واردة – رقم غير مسجل

يوسف يرد بتردد. صوت رجولي على الطرف الآخر.

الصوت:

"أستاذ يوسف... أنا من فريق برنامج وثائقي كبير، مهتمين ننتج حلقة كاملة عن مشروعكم..."

يوسف (بحذر): "وثائقي؟ عن المعرض؟"

الصوت: "عن المعرض، وعنكم. نعمل على سلسلة اسمها التحوّل، نسلّط فيها الضوء على مبادرات تصنع فرق حقيقي في المجتمعات. مشروعكم مثال نادر."

يوسف: "أنا لستُ ضد التوثيق... لكن بعض المشاركين غير مرتاحين للكاميرات."

"نفهم إشكاليتهم أستاذ يوسف. نعمل بشفافية، ونقدر نراسل المحامية نورا مباشرة لو احببتم تشوفون التفاصيل."

يغلق يوسف المكالمة بتفكّر.

ليان: "الشهرة صارت تطرق الباب بنفسها، تريدنا نفتح لها؟"

يوسف (بابتسامة مشروخة): "أنا لست خائف من الشهرة... خائف من فقدان المعنى تحت أضواءها."

سكت يوسف، وترك الجملة الأخيرة تذوب في هواء الغرفة: " أنا لست خائفاً من الشهرة.... خائف من فقدان المعنى تحت أضوائها"

في تلك اللحظة لم يعد المعرض محطة ضوء، بل مرآة، ولم تعد القضية معركة ميراث بل اختبار هوية.

في آخر الطريق، لم يكن يوسف يحمل ورقة حكم، ولا صك ملكية،

بل كان يحمل شيئًا أعمق من ذلك كله...

سلامًا داخليًا لا تصنعه القوانين، بل تسوغه النجاة من التحوّل إلى من آذاك.

الميراث؟

اكتشف أنه ليس بيتًا يُقفل خلفه الباب، ولا مزرعة تُحصى حدودها على الورق.

الميراث هو ما تبقى منك بعد كل ما أُخذ منك.

وهو ما تختار أن تُورّثه لمن بعدك: فكرة، أثر، أو لمسة حنان.

خرج من دوامة النزاع لا غالبًا ولا مغلوبًا... بل ناضجًا.

وقف على أطلال المعركة لا ليُعلن انتصاره، بل ليزرع فوق رمادها حياة.

في ساحة الورشة – التي كانت قلب الصراع، وصارت قلب المدينة –

جلس يوسف بين الأطفال، يراقب الألوان تتسلق الجدران، وتصنع من الألم لوحة جديدة.

ليان كانت هناك، تمسك بدفتر رسم، وجهها مغمور بشمس الغروب.

اقترب طفل صغير، رفع فرشاة صغيرة ملطّخة بألوان زاهية، وسأله:

– "أستاذ يوسف، أرسم قلبي هنا؟"

تبسّم يوسف، وأشار إلى زاوية الجدار:

– "ارسمه... لكن اترك فيه بابًا لا يُغلق أبدًا."

وبين ضحكات الصغار، ورفرفة حمامة بيضاء على سطح الورشة،

رفع يوسف رأسه نحو السماء، كأنّه يودّع زمنًا مضى، ويستقبل زمنًا يشبهه.

كان قد فقد أباه، واكتشف نفسه.

خسر بيتًا، وربح حياة.

وفي داخله، همسٌ هادئ يقول:

"لقد متُّ هناك... ثم بدأتُ هنا."

تمت